4 – البصرة في كتب الرحالة الأوروبيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين (نماذج مختارة)

Basra in European Travelers' Books during Seventeenth and Eighteenth Centuries AD

(Selected Models)

م.م وجدان كارون فريح التميمي

قسم الدراسات التاريخية/ مركز دراسات البصرة والخليج العربي/ جامعة البصرة

wijdaniq04@gmail.com

الملخص

ركز البحث تحديداً على ما كتبه أربعة رحالة اوروبيين اثناء تواجدهم في البصرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين من جانب سياسي واقتصادي واجتماعي، فضلاً عن وصفهم للمدينة وفق رؤيتهم آنذاك، لاسيما ان البصرة شهدت في هذه المدة نشاطاً ملحوظاً سياسياً واقتصادياً انعكس على واقعها الاجتماعي، فغدت مطمعاً للدول المتنافسة سواء الاوروبية او بلاد فارس او الدولة العثمانية؛ لتشهد تلك المدة احداثاً سياسية كان من اهمها محاولات ولاة الدولة العثمانية اخضاع والي البصرة الافراسيابي لحكم السلطان في النصف الثاني من القرن السابع عشر، والزحف الفارسي الى البصرة وحصارها عام 1775. كما ركز البحث على غايات واهداف أصحاب الرحلات الذين تناولتهم الدراسة لفهم طبيعة رحلاتهم، واسباب مرورهم بالبصرة التي كانت وقتذاك وبشهادة اغلب المصادر الأوروبية صاحبة حظوة تاريخية بين مدن العالم جميعها.

الكلمات المفتاحية: البصرة، الرحالة الأوروبيين، الاب فنشنسو، جان دي تيفينو، ابراهام بارسونز، صموئيل إيفرز.

ABSTRACT

The research focuses specifically on what is written by four European travelers as they were in Basra in the seventeenth and eighteenth centuries AD on the political, economic and social aspect. Moreover, describing the city according to their vision at the time, especially that Basra witnessed during this period a remarkable political and economic activity that was reflected in its social reality. Basra became a target for the greed of competing countries, whether European, Persia, or the Ottoman Empire. Therefore, that period witnessed the most important political events of which were the attempts of the rulers of the Ottoman Empire to subjugate the governor of Basra, Ephesia, to the rule of the Sultan in the second half of the seventeenth century, as well as the Persian siege of Basra in 1775.

The research also focuses on the goals of these travelers to understand the nature of their trips. The reasons behind their passage through Basra,

which was at that time has a prominent status among all the cities of the world, with testimony of most European sources is also taken into consid-eration.

Keywords: Basra, European travelers, F. Vincenzo, Jean de Thévenot, Abraham Parsons, Samuel Evers

المقدمة

تعد كتابات الرحالة الاوروبيين عموماً مصدراً مهماً في دراسة تاريخ العراق الحديث، وتعود أهميتها لغزارة مادتها التي صورت الكثير من جوانب الحياة اليومية الاجتماعية والاقتصادية والدينية في العراق، فضلاً عن دراستها لجوانب مختلفة والتي تعد ثروة تاريخية لها قيمتها في توضيح اغلب الاحداث، ان لم تكن المصدر الوحيد لبعضها الا ان عدداً من الرحالة صوروا جوانب حيّة عن الحياة اليومية تصويراً عبر عن وجهات نظرهم، وأحيانا كانت آراؤهم غير دقيقة وغير محايدة، وأحيانا أخرى مبالغاً فيها أو تشوبها عبارات حاقدة أو غير واقعية، ولا سيما عند الحديث عن المسلمين والإسلام عموماً. كما ان بعض الرحّالة الاوربيين كانوا يقعون في أخطاء تاريخية عندما يحاولون تقديم معلومات تتعلق بتاريخ العراق، أو تتعلق بأسماء مدن العراق، ولعل سبب تلك الأخطاء يرجع إلى تأثر أولئك الرحالة بما قرأوه في كتبهم التاريخية والدينية عن تاريخ العراق وحضارته.

وعكست الرحلات الأوروبية بغض النظر عن الأهداف والدوافع الحقيقية لها الاهتمام الأوروبي بالبصرة تحديداً منذ مطلع القرن السادس عشر، أي بعد بدء التنافس الأوروبي للسيطرة والتوسع في العالم العربي والإسلامي، فتعددت الرحلات الأوروبية وتعدد أصحابها ما بين برتغالي وفرنسي وايطالي وانجليزي والماني وهولندي. واخذت البصرة حيزاً كبيراً في كتب الرحلات الاوروبية لان اغلب من زار العراق والخليج العربي والهند وبلاد فارس كان لزاماً عليه ان يمر بها لموقعها الاستراتيجي ولمكانتها الاقتصادية والسياسية في الدولة العثمانية والامبراطورية الفارسية، فضلاً عن الدول الأوروبية.

ولكثرة الرحالة الذين زاروا البصرة، ولكثرة الدراسات الاكاديمية التي تناولت موضوع الرحلات الى البصرة ارتأت الدراسة اختيار نماذج محددة من الرحالة الاوربيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين؛ تكاد الدراسات الاكاديمية تكون قليلة البحث عنها، فضلاً عن اختلاف توجهاتهم.

تأتي أهمية هذه الدراسة من الأهمية التاريخية للبصرة ودورها السياسي المثقل بالاحداث والتي شهدت تحولات كبيرة على الأصعدة جميعها، كما تعود أهمية الدراسة الى أهمية كتابات الرحالة التي جاءت متأثرة بالأوضاع السائدة وقتذاك.

اما الهدف من هذه الدراسة فهو الوصول الى الحقيقة التاريخية المتعلقة باوضاع البصرة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في القرنين مجال الدراسة. ومن خلال المقاربة بين كتابات الرحالة تحاول الدراسة الوصول الى الحدث التاريخي الصحيح، فضلاً عن معرفة الأهداف والغايات الحقيقية لهؤلاء الرحالة (موضوع الدراسة) وراء كتاباتهم.

عانى تاريخ البصرة من صراعات داخلية وخارجية اثرت في البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمدينة، لذا ستكون إشكالية البحث متمثلة بالسؤال التالي: هل استطاع الرحالة الأوروبيون إعطاء صورة تاريخية واضحة ودقيقة عن البصرة بالإمكان الاستفادة منها تاريخياً؟

وبطبيعة الحال فإن الصعوبات التي واجهت الدراسة هي عدم الحصول على الكتابات الاصلية

للرحالة، وان تواجدت فالحصول على الترجمة الدقيقة غاية في الصعوبة بسبب اللهجات القديمة التي كتبت بها كتب الرحالة، فضلاً عن كثرة الأخطاء الإملائية.

اتخذت الدراسة من البصرة النطاق المكاني للدراسة، ومن القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين النطاق الزمني لها.

استخدم في الدراسة منهج الوصف التاريخي مع المنهج التحليلي والتركيبي. ومن اجل الوصول الى الأهداف المرجوة من الدراسة قسمت الى خمسة مباحث، فضلاً عن مقدمة وخاتمة واستنتاجات وقائمتي الهوامش والمصادر. تناول المبحث الأول دوافع الرحالة الأوروبيين، وجاء المبحث الثاني لوصف البصرة، وبين المبحث الثالث الأوضاع السياسية في البصرة، ودرس المبحث الرابع الأوضاع الاقتصادية في البصرة، وتطرق المبحث الخامس الى الأوضاع الاجتماعية في البصرة.

المبحث الأول

دوافع الرحالة الأوروبيين

اختلفت دوافع الرحالة الاوروبيين الى الشرق الأوسط، ما بين سياسية او اقتصادية تجارية او استكشافية او تبشيرية او جميعها. وبالرغم من اختلاف الدوافع فإن الرحالة وفروا معلومات تفصيلية ودقيقة ومهمة لدولهم، ساعدت الى حد بعيد في توجيه سياسة تلك الدول نحو الشرق بصورة عامة، والعالم العربي والإسلامي بصورة خاصة، بل عدت احياناً الخطوة الأولى للاستعمار والهيمنة.

❁ رحلة الاب فنشنسو (F. Vincenzo Maria di S. Caterina de Siena)(153)

بدأت رحلة الاب فنشنسو عام 1656، وكان عضواً في وفد ارسل الى الهند برئاسة الاب سبستياني (Sebastiani)(154)، بهدف الوصول الى الهند الشرقية في مهمة دينية رسمية. وخلال الرحلة كتب مدونات عن مشاهداته، ونتيجة لإلحاح الأصدقاء والرهبان الذين كانت تستهويهم اخبار الشرق، ونزولاً عند رغبتهم نشر كتابه عام 1672 بالرغم من عدم تفكيره بنشره مسبقاً، وكان بعنوان: «رحلة الى الهند الشرقية للاب فنشنسو–مارية دي سانتا كاترينة دي سيينا–وكيل الكرمليين الحفاة العام» ونشر الكتاب بثلاث طبعات. يعترف صاحب الرحلة ان في الشرق «**قوى غنية تجذب المشاعر**»، ولكن لا توجد في كتاباته أي تعبير عن انجذابه او حبه للشرق؛ اذ كانت رؤيته سلبية لمدن الشرق التي مر بها مرور

---

(153) – **الاب فنشنسو مارية دي سانتا كاترينة دي سيينا (1625–1679)**، إيطالي الأصل، انخرط منذ صغره في سلك الرهبنة الكرملية، واحتل مكانا مرموقاً في رهبنته، واكتسب ثقة رؤسائه حتى عهد اليه تدبير بعض ادیار الكرملين. ارسل مع وفد الى الهند، وبعد عودته الى إيطاليا ترأس دير الكرمليين في مقاطعة لومبارديـة، وأسس ديراً في فاريزي عام 1677، له بعض المؤلفات منها رحلته الى الهند، ورسائل توجيهية لتلاميذه الكرمليين وزملائه. توفي عام 1679 وعمره 54 عام. للمزيد ينظر: بطرس حداد، رحلة الاب فنشنسو الى العراق، القسم الأول، مجلة مجمع اللغة السريانية، المجلد الأول، بغداد، 1975، ص181–179.

(154) – **الاب جوزيبه دي سانتا ماريا الكرملي (1623–1689)**: هو هيرونيموس سبستياني ولد في إيطاليا وانخرط في السلك الرهباني لدى الآباء الكرمليين الحفاة عام 1641 في روما واتخذ اسماً جديداً وهو الأخ جوزيبه دي سانتا ماريا. انتدبته الكنيسة الكاثوليكية في روما للذهاب الى الشرق في مهمة رسمية الى الهند بصفة مفتشا رسوليا لدراسة أحوال النصارى في ولاية كيرالا الحالية عام 1656، وهو لا يعرف اية لغة شرقية، ورافقه رهبان من ديره، وعاد الى أوروبا نهاية عام 1658 بعد اكمال المهمة التي أسندت اليه. عاد الى الشرق مرة أخرى عام 1660 للغاية نفسها، ومر بالعراق اربع مرات 1656 و1658 و 1660 و 1664، وترك وصفاً لرحلاته في مجلدين طبعت بالايطالية. للمزيد ينظر: سبستياني، رحلة سبستياني الاب جوزيبه دي سانتا ماريا الكرملي الى العراق سنة 1666م، ترجمة بطرس حداد، ط1، الدار العربية للموسوعات، لبنان، 2006، ص12–9.

الكرام كرؤية السائح اللامبالي، ووصفه بارد لا روح فيه، الا انه صاحب قلم سيال ولغة متينة وأسلوب مشوق وانشاء سليم(155).

يتضح ان دافع الرحلة كان دينياً رسمياً، وبما انها تحمل الصفة الرسمية كان لا بد من تدوين معلومات تخص المدن والمجتمعات التي مرت بها وصولاً الى غايتها، وكانت البصرة ضمن المدن الرئيسة التي توقف فيها الوفد.

❁ الرحالة جان دي تيفينو (Jean de Thévenot)(156)

تعد رحلة جان دي تيفينو «رحلة الى الشرق 1667–1663» من اهم الرحلات الفرنسية في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، اذ احتوت على معلومات جغرافية واقتصادية واجتماعية قيمة، ونوادر متنوعة، فضلاً عن حقائق تاريخية مهمة((157)).

وعرف عن تيفينو بانه رحالة صادق محب للسفر، لم يسافر من اجل مهمة محددة (158)، بل كانت غايته من رحلاته اشباع رغبة شخصية في الاطلاع على الشرق راغباً في اكتشاف اسراره والتمتع بسحره، فلم يكن دبلوماسياً او راهباً مبشراً او تاجراً، فكان يتنقل من مكان الى اخر يساعده في ذلك حالته المادية الجيدة. وكان يطيب له الاختلاط بالناس لذا اتسمت مدوناته بطابع البساطة، واحتوائها على معلومات تاريخية ثمينة (159).

فلم يكن لهدف الرحلة ابعاد سياسية او اقتصادية او تبشيرية كبقية الرحلات التي اتسمت بها تلك الحقبة التاريخية التي بدأت فيها حركة التبشير الأوروبية تسيطر على عقول الرحالة المبشرين الأوروبيين التابعين للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وبالرغم من ان حركة التبشير الأوروبية انعكست بشكل واضح على عقلية صاحب الرحلة وسلوكه، الا ان حبه للسفر كان هدفه الحقيقي لرحلاته جميعها (160).

---

(155) – بطرس حداد، المرجع السابق، ص180.

(156) – **جان دي تيفينو (1667–1633):** ولد في باريس من عائلة على شيء من اليسر وبحبوحة العيش؛ ترعرع في احضان عمه ملكيصاداق الذي كان يكن للشرق حباً واعجاباً عظيمين، فتأثر جان بعمه، ونمت في نفسه رغبة اكتشاف اسرار الشرق، تلقى تعليمه في كلية نافار. لغوي بارع، يتقن اللغات العثمانية والعربية والفارسية، فضلاً عن براعته في العلوم الطبيعية لاسيما علم النبات، واثناء تواجده في الهند جمع مجموعات مختلفة من النباتات. عرف بجديته ودقة الملاحظة، واتسم بشخصية مثيرة للاعجاب، ولا زالت كتاباته محترمة. بدأت أولى رحلاته في أوروبا عندما غادر فرنسا عام 1652، زار خلالها إنجلترا وهولندا وألمانيا وإيطاليا وفيها التقى بالمستشرق الفرنسي دا هيربلو (D'Herbelot) الذي دعاه لمرافقته في رحلته الى بلاد الشام. سافر الى تركيا والشرق الأوسط، وانطلق من فلسطين ومصر وايران وانتهى الى الهند. عاد الى فرنسا وبقي اربعة أعوام في بلاده ثم ابحر مرة أخرى من فرنسا الى الشرق عام 1663 ليزور مصر وبلاد الشام، ثم عبر بلاد الرافدين الى الموصل وبغداد ومندلي، ومنها توجه الى بلاد فارس، وواصل سفره حتى وصل البصرة، وابحر منها الى الهند، وفي طريق عودته وافاه الاجل في مدينة ميانا بارمينيا. وان تيفينو اول من ادخل استعمال القهوة في فرنسا؛ وكان يعرف بانه كان يشعر بلذة عظيمة عند احتساء ذاك المشروب الأسود الحار المجهول في فرنسا، أي القهوة. للمزيد ينظر: بطرس حداد، مقتطفات من رحلة تيفينو الى العراق (القرن السابع عشر)، مجلة بين النهرين، العدد 8، السنة الثانية، دار نجم المشرق الثقافي للنشر والتوزيع، بغداد، 1974، ص388–387؛
Encyclopedia Britannica 1911, GEOGRAPHICAL NAMES, Jean De Thevenot, www.theodora.com/encyclopedia

(157) – جان دي تيفينو، رحلات جان دي تيفينو في الاناضول والعراق والخليج العربي (1665–1664)، ترجمة وتعليق انيس عبد الخالق محمود، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013، ص7.

(158) – سعيد رخا، رشيد في عيون الرحالة والمستشرقين (خلال القرون 19–16م)، ط1، مؤسسة الامة للنشر والتوزيع، مصر، 2019، ص39.

(159) – بطرس حداد، مقتطفات من رحلة تيفينو الى العراق (القرن السابع عشر)، المرجع السابق، ص388.

(160) – جان دي تيفينو، المرجع السابق، ص7.

❁ الرحالة ابراهام بارسونز (Abraham Parsons)[161]

كتب بارسونز في مقدمة كتابه ان مهنة قائد لسفن تجارية، هي المهنة التي «**تناسب رجلاً مولعاً بكل ما هو غريب بالفطرة**»[162]. وعلى هذا الاساس اعطى بارسونز تصوراً بان رحلاته كانت بدافع الفضول لكل ما هو غريب، وان عمله كقنصل وتاجر جعل من سفره وتنقلاته بين الدول والبلدان مسألة حتمية. ونتيجة لولعه بكل ما هو غريب، والاحداث التي عاشها خلال رحلاته دون مخطوطه.

اما محرر كتاب بارسونز؛ جون باين بيرجو (John Payne Pergo) فذكر ان الدافع الأساس لنشر الكتاب كان تلبية لرغبة والد جون وأصدقائه [163].

وفي ضوء ذلك يكون دافع الرحلة تجارياً واقتصادياً يعود لصالح شركة الليفانت اثناء عمله كقنصل للشركة، وتاجر، فضلاً عن حب المغامرة.

❁ الرحالة صموئيل إيفرز (Samuel Evers)[164]

كان دافع رحلة ايفرز «من البصرة الى البحر المتوسط سنة (1779)» تسجيل لمذكرات رحلته التي

---

(161) – **ابراهام بارسونز (1785):** اسكتلندي الأصل، ابن نقيب تجار، كان ضابطاً بحرياً في حياته المبكرة وقائداً لسفن تجارية زار خلالها عدد من البلدان، الا انه لم ينجح بممارسة التجارة في مدينته بريستول. عينته شركة الليفانت التركية عام 1767 قنصلاً ووكيلاً بحرياً لها في ميناء الاسكندرونة السوري، وظل في المنصب لمدة (6) اعوام ثم تقاعد بسبب رداءة الجو هناك من الناحية الصحية. بدأ بين الأعوام 1774–1772 رحلات عدة في تركيا لعقد صفقات تجارية، وبعدها سافر من الاسكندرونة التي بدأ منها بتدوين رحلته الى حلب، وعبر بادية الشام توجه من حلب الى بغداد، ومنها عبر نهر الفرات الى الحلة ثم البصرة، ومنها توجه بارسونز الى الخليج العربي في طريقه الى الهند، ومن بومبي توجه الى عدد من المدن الواقعة على الساحل الغربي لشبه القارة الهندية وصولاً الى ميناء غوا. وعن طريق البحر الأحمر عاد بارسونز من الهند عام 1778، وزار ميناء مُخا على الساحل الجنوبي لليمن، ومنها الى مصر. وفي العام ذاته عاد الى أوروبا وتقاعد في ليغورن وتوفي عام 1785. دون بارسونز رحلته في مخطوط انتقل بعد وفاته الى نسيبه جون بيرجو، ثم الى ابنه الوحيد جون باين بيرجو محرر المدونات، وصدر الكتاب عام 1808 في لندن بعنوان: «رحلات في اسيا وافريقيا، بضمنها رحلة من الاسكندرونة الى حلب، ومنها الى بغداد والبصرة عبر الصحراء؛ ورحلة من البصرة الى بومبي». صدر الكتاب بعد اكثر من ثلاثين عاماً من تأليفه بسبب انشغال المحرر بتدقيق المخطوط، وتصحيح لغته، وحذف بعض العبارات الخاصة بحياة المؤلف، للمزيد ينظر: ابراهام بارسونز، رحلة ابراهام بارسونز من حلب الى الخليج العربي (1775–1774)، ترجمة وتعليق: انيس عد الخالق محمود، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013، ص12–10؛ ج.ج لوريمر، دليل الخليج، ج4، القسم التاريخي، قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو امير دولة قطر، مطابع علي بن علي، الدوحة، (د.ت)، ص 1855.

(162) – ابراهام بارسونز، المرجع السابق، ص10.

(163) – المرجع نفسه، ص11.

(164) – **صموئيل ايفرز (1787–1764):** ينتمي صموئيل ايفرز الى عائلة ميشيل الإنكليزية الثرية التي ورث منها ملكية في مدينة ساسكس بانكلترا. لا يعرف الكثير عن المرحلة المبكرة من حياته سوى انه دخل المدرسة بين عامي 1769 او 1771. ذهب الى الهند للعمل في شركة الهند الشرقية، وبسبب تدهور أوضاعه المالية في الهند ترك عمله في شركة الهند الشرقية عام 1779 وكان برتبة ملازم، وقرر العودة الى اوروبا بالطريقة الصعبة، فغادر الهند عن طريق البحر حتى وصل البصرة ومنها الى بغداد ثم الى حلب عبر طريق البادية، ومنها الى اللاذقية والبحر المتوسط حتى إيطاليا. وواجه بعد عودته الى بلاده مشاكل مالية لانه وجد املاكه محتجزة، مما ادى الى تراكم ديونه حتى اضطر للعمل بصفة كاتب بسيط لدى احد المحامين. وفي عام 1784 بذل قصارى جهده لدفع كتابه الذي دونه خلال رحلته من البصرة الى إيطاليا للنشر. وانتحر فجأة عام 1787، بسبب خيانة خطيبته له. ومن الجدير بالذكر ان حياة الرحالة تكاد تكون مجهولة بالكامل، ولم يترك الرحالة سوى كتاب رحلته النادر «**رحلة من البصرة الى بغداد: عبر الصحراء الصغرى، الى حلب، وقبرص، ورودس، وزانته، وكورفو؛ ثم اوترانتو، بايطاليا، في سنة (1779)**». للمزيد ينظر:

Brian Slyfied, Samuel Evers: from India, through Arabia, to Horsham–and an Early Death, The Horsham Society Newsletter, November 2001, p146–147

كتبت بدافع التسلية، ونشرت نزولاً عند رغبة أصدقائه بعد توسلاتهم له، فكانت الأثر الوحيد له [165].

الا ان رحلة صموئيل تعد رحلة ذات فائدة بشكل خاص للبريطانيين، كما جاء في كتاباته: «**امل ان لا أكون مغروراً بهذه الإضافة، وان تكون المعلومات المنقولة ذات فائدة استثنائية للبريطانيين الذين بدأت تجارتهم مع العالم الشرقي تحتل الآن أهمية حقيقية**» [166]، وأشار ايفرز الى اهمية شركة الهند الشرقية [167] المتزايدة في الشرق نسبة الى بقية الشركات التجارية الأخرى. ويواصل ايفرز القول: «**اصبح الطريق البري الى الهند الان اكثر ارتياداً من السابق، وفي اغلب الأحيان يفضل على الطريق البحري الممل والطويل جداً. وكل طريق يسهل السفر يثير اهتمام الجمهور**» [168].

وبذلك، تعد رحلة صموئيل دليلا عمليا على اهمية الطريق البري التجاري للبريطانيين. ولو فرض جدلاً ان هدف الرحلة منذ بدايتها كان مغامرة وتسلية، الا ان نتيجة لمشاهداته وتوثيقه لاهم الاحداث، أعطاه دافعاً آخر كان لفائدة ومصلحة الحكومة البريطانية سياسياً واقتصادياً.

المبحث الثاني

وصف مدينة البصرة

غالباً ما يبدأ الرحالة كتاباتهم بوصف المدن التي يزورونها، لاسيما المواقع التي تلفت الانتباه مثل الطبيعة، والعمران، والملابس. ومن اجل الوصول الى وصف دقيق لما كانت تتمتع به البصرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، سيسلط هذا المبحث الضوء على ما جاء في كتب

(165) – صموئيل إيفرز، رحلة صموئيل إيفرز من البصرة الى البحر المتوسط سنة (1779)، ترجمة وتعليق: انيس عبد الخالق محمود، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013، ص13.

(166) – Brian Slyfied, p147, op.cit.

(167) – **شركة الهند الشرقية:** تأسست الشركة كمشروع تجاري صغير يديره مجموعة من تجار مدينة لندن، حتى مُنحت في 31 كانون الثاني 1600 احتكار التجارة الإنجليزية في مناطق آسيا جميعها والمحيط الهادئ. تمكنت الشركة من امتلاك نفوذ اقتصادي هائل وتأثير سياسي خطير حتى قامت بأدوار رئيسة في احتلال الهند، وتدمير الصين ونهب البصرة وبندر عباس، بعد ان اصبحت البصرة مقراً لنشاط شركة الهند الشرقية البريطانية التجاري منذ عام 1643، كما اخضعت لهيمنتها مدناً واصقاعاً عدة في اليابان وسنغافورة وغيرهما من البلدان. كانت عمليات الشركة تُدار بنظام «الوكالة»، فعندما تعود السفن إلى أوروبا كان وسطاء يُعرفون باسم «الوكلاء» التجاريين يبقون في محطات تجارية للتفاوض مع التجار المحليين على بيع المخزون الحالي من السلع وشراء البضائع الجديدة لرحلات العودة. أشرفت على أعمال الشركة إدارة مركزية في لندن، وكانت الشركة ترسل تعليماتها التجارية والسياسية والإدارية على متن سفنها إلى المجالس التي تم تأسيسها في مستعمراتها الرئيسة في آسيا، وكانت هذه المجالس مسؤولة بدورها عن إدارة الوكالات التابعة لها والتي كان من بينها بندر عباس والبصرة. تطور وضع الشركة من كونها فقط مؤسسة تجارية عندما اندلعت الحرب بين بريطانيا وفرنسا وطالت الهند في منتصف أربعينيات القرن الثامن عشر. فتفوقت الشركة عسكرياً على الشركات التجارية الأوروبية المنافسة والحكام المحليين، وبلغت ذروة هذا التفوق عام ١٧٥٧ بسيطرتها على إقليم البنغال. وعزز الاستحواذ على المزيد من الأراضي في الهند في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر انتقال دور الشركة من كونها مجرد شركة تجارية إلى قوة سيادية هجينة. استمرت الشركة في دورها الاستعماري حتى عام ١٨٥٨ عندما نقل قانون حكومة الهند الصلاحيات الممنوحة لها إلى مكتب الهند التابع لوزارة الخارجية في أعقاب التمرد العسكري والمدني الذي وقع في شمال شبه القارة الهندية. وتم حلّ شركة الهند الشرقية نهائياً في 1 حزيران ١٨٧٤، بعد أن حصل المساهمون على تعويض من البرلمان. للمزيد ينظر: نك روبينز، الشركة التي غيرت العالم: كيف بنت شركة الهند الشرقية الإمبراطورية البريطانية وقدمت المؤسسة العابرة للقارات، ترجمة كمال المصري، تقديم احمد بهاء الدين شعبان، ط1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2009؛ عبد الحكيم عجيل عبد الرزاق السعدون، البصرة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر دراسة في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، رسالة ماجستير غير منشورة، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، 1989، ص65.

(168) – Brian Slyfied, p147, op.cit.

الرحالة من وصف للمدينة.

❁ رحلة الاب فنشنسو

وصلت الرحلة الى مكان التقاء نهر دجلة بالفرات وتكوين نهر شط العرب في 5 أيلول 1656 عند مدينة تدعى المنصورية [169]. وشط العرب –بحسب وصف فنشنسو– تجري فيه مياه نهري دجلة والفرات ولكن كلّ على جهة، أي بالإمكان ملاحظة مياه الفرات النقية في الجهة اليسرى من الشط بينما يلاحظ المياه العكرة على الجهة اليمنى، وان شط العرب عريض جداً «**يكاد ان يكون بحيرة عظيمة**». ويوجد في الارض الواقعة عند ملتقى النهرين قلعتان قريبتان من ضفاف الفرات، تتمتعان بمظهر القوة والحصانة لكثرة الأبراج العالية والجدران العديدة فوق الاسوار، فهما تصلحان لمقاومة هجمات البدو لافتقارهم الى المدافع والأسلحة النارية، الا انهما لن تقفا امام الأسلحة الحديثة. كما توجد قلعتان أخريان في الطريق الى مدينة البصرة وهما: قلعة المدينة (El Medina)، والفتار (Elphatar). ومن المواقع التي مرت بها الرحلة قبل الوصول الى البصرة قرية العين، وبالرغم من انها فقدت اهميتها الا ان اراضيها لا تزال خصبة وصالحة الى الزراعة لكثرة المياه، وبعض ابنيتها لا تزال قائمة. وتقابل القرية جزيرة صغيرة عليها ابنية واشجار كثيرة، وقيل ان الوالي يأتي الى هذا المكان طلباً للراحة وممارسة الصيد لكثرة الغابات فيها. اما الأراضي الواقعة على ضفتي النهر فهي بغاية الجمال والخصوبة، ويكثر فيها أنواع البقول والرز، فضلاً عن أشجار النخيل الذي يتناول الأهالي ثمره الطيب المذاق طيلة أيام السنة، ومن ثمر النخيل يُصنع العَرق وهو شراب كحولي قوي جداً [170].

قدم فنشنسو اسباباً عدة لشهرة مدينة البصرة، فهي تعد من اقدم المدن في المنطقة العربية، وموطن رجال مشهورين «**كابن سينا** [171] **مثلا**»، ومحطة مهمة على الخليج العربي وقبلة الكثيرين من القوميات المختلفة، ولها أهمية كبيرة في نظر المسلمين «**لانها من أوائل المدن التي خضعت للفتح الإسلامي**» [172].

---

(169) – **المنصورية:** احدى الجزائر المتكونة من سواعد شط العرب، وكانت الجزائر تشتمل على قرى عديدة معمورة، وطوائف كثيرة، ووعرة المسالك كثيرة المياه. للمزيد ينظر: علي ظريف الاعظمي، مختصر تاريخ البصرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2017، ص81.

(170) – الاب فنشنسو، رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة وتعليق بطرس حداد، مجلة المورد، العدد الثالث، المجلد الخامس، العراق–بغداد، 1976، ص83–82.

(171) – **ابن سينا (427–370هـ/ 1037–980م):** هو ابو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، ولد في قرية والدته أفشنة بالقرب من بخارى (في اوزبكستان الحالية)، وابوه من مدينة بلخ (في افغانستان الحالية) وكان والياً لأفشنة في دولة السامانيين (389–261هـ/ 999–875م)، لذا نشأ ابن سينا نشأة هانئة، وعهد به والده الى كبار رجال العلم في بخارى ليتلقى علوم القرآن ثم الفلسفة والمنطق والاداب والعلوم الشرعية والهندسة والفلك وعلم النفس والاجتماع والرياضيات والموسيقى، الا انه ولع بالطب وتعلم الطب النظري والعملي ومارس مهنة الطب حتى اصبح علم اعلام الطب في عصره، وعند عمر الثانية والعشرين غادر الحسين بخارى الى مدينة جرجانية –عاصمة خوارزم وتقع على الجانب الشرقي من بحر قزوين– وبعد عشرة أعوام في جرجانية غادرها الى جرجان على بحر قزوين. اخذ الامير شمس الدولة معه الحسين الى همدان وعينه رئيساً للوزراء على همدان، ثم لاسباب سياسية نفي من همدان واتجه الى مدينة دهستان وهناك اصابه المرض وعاد الى جرجان ثم غادرها الى همدان لعلاج اميرها وعاد رئيساً للوزراء، وبعد مدة هرب الى اصفهان وتفرغ للتأليف وبقي فيها حتى اصبح عمره (55) عاماً فأصابه مرض الام المعدة والقولون، وغادر اصفهان الى همدان واشتد عليه المرض وتوفي فيها. ترك الحسين الكثير من المؤلفات بلغ عددها اكثر من (100) كتاباً في شتى المجالات اهمها القانون في الطب. ولقب بالقاب كثيرة منها الطبيب الحاذق، والشيخ الرئيس، واامير الاطباء. للمزيد ينظر: عاطف محمد، علم اعلام الطب ابن سينا، ط1، اشهر العلماء في التاريخ، 8، دار اللطائف للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص24–3؛ عباس محمود العقاد، ابن سينا، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2013، ص17–10؛ https://online.library-books/

(172) الاب فنشنسو، المرجع السابق، ص83.

ومن سيرة حياة ابن سينا نجد انه لم يطأ ارض البصرة، فلا نعلم لماذا او كيف استنتج فنشنسو ان موطن ابن سينا هو البصرة، وهنا ربما يقصد اسماً اخر ولم يترجم بالصورة الصحيحة او قصد ابن سينا وبذلك فكلامه غير صحيح.

وعن موقعها فالبصرة تقع بالقرب من خط الاستواء، على حدود المملكة الإيرانية من جهة، والأرض الخاضعة لامير قطيف من الجهة الأخرى. اما عمارتها فليس فيها ما يجذب النظر، وليست على جانب كبير من العظمة، وتتناثر دورها بين غابات النخيل. وعن خيرات البصرة قال فنشنسو: «**مما يزيد من أهمية موقعها هو النهر، خيراتها وافرة نظراً لوجود البحر، حدائقها كثيرة، حقولها شاسعة، نخيلها وفيرة، تأتيها البضائع من مختلف البلاد: من بلاد العرب ومن فارس وتركية، ومن الهند بنوع خاص، اذ تصلها السفن محملة بمختلف منتوجات الهند. وتكثر في البصرة أنواع المأكولات، وهي من احسن الأنواع واطيبها**» [173].

الا ان فنشنسو ذكر مأخذاً واحداً على البصرة وهو الحر الشديد «**الذي يعذب سكانها**»، والرمال المحيطة بالمدينة والتي تهب عليها مع هبوب الرياح الشرقية، وعند تعكر صفاء الجو يلجأ الكثيرين الى السباحة في النهر تخلصاً من الحر والرمال، ولولا النهر الذي يسقي الحقول لاحترقت الأرض. اما في فصل الشتاء فالبصرة شحيحة الامطار التي تهطل ثلاث مرات فقط خلال اشهر الشتاء، الا انها قوية جارفة تهدم المنازل المشيدة بالجص واللبن. وعند مصب شط العرب في الخليج يوجد العديد من الجزر تسمى احداها باسم «ابينا» يعقوب، وان سبب تسميتها بذلك بحسب ادعاء الأهالي ان يعقوب سكن فيها لفترة من الزمن [174].

الرحالة جان دي تيفينو

تقع مدينة البصرة الى الجنوب بمسافة يومين عن مكان اندماج نهرا دجلة والفرات على ضفاف شط العرب، وتبعد (18) فرسخاً [175] عن البحر، وتقع على خط العرض (30) او (31) درجة، وتبعد يومين براً عن بغداد، وتستغرق المسافة من بغداد الى البصرة بين (16–15) يوماً بالنهر، اما من البصرة الى بغداد فتستغرق السفن ما بين (60–50) او حتى (80) يوماً في هذه الرحلة اذ يسحبها الرجال فقط. وصف تيفينو البصرة بانها مدينة كبيرة ومحاطة باسوار ترابية، ويبلغ محيطها نحو (5) ساعات سيراً على الاقدام، الا انها تضم الكثير من المساحات الخالية التي لا توجد فيها بيوت او بساتين. وللبصرة بوابتان وهما بوابة الشرق، وبوابة الغرب او بوابة بغداد لانها البوابة التي يتوجهون منها الى بغداد. ومن وجهة نظر تيفينو فان موقع البصرة ملائم جداً وبالامكان ان تكون اغنى مدن العالم واجملها اذا ما تم الاعتناء ببنائها، وزراعة الحدائق على امتداد ضفة القناة القادمة من شط العرب التي تخترق المدينة كلها، كما ان لها تربة رمادية خصبة جداً لو سمدت وزرعت بالنخيل «فأعتقد» انها ستنتج أي شيء لاسيما ان مياه النهر ترطبها مرتين باليوم عند ارتفاع مناسيب مياه البحر الذي يبعد (4) أيام ونصف اليوم عن البصرة. وينمو النخيل بكثرة في البصرة في الأراضي الملحية لاسيما الأراضي المحيطة بها اكثر مما هو عليه في أي بلد في العالم. ويفند تيفينو ملوحة أراضي البصرة

---

(173) – المرجع نفسه، ص84.

(174) – المرجع نفسه، ص84، 86.

(175) – **الفرسخ**: كلمة فارسية معربة وتعني (3) اميال هاشمية، والطولى منه (12.000) ذراع. او (4) كيلو متر، وحوالي (5555) متر. للمزيد ينظر: المفتي السيد محمد عميم الاحسان المجددي البركتي، التعريفات الفقهية –معجم يشرح الالفاظ المصطلح عليها بين الفقهاء والاصوليين وغيرهم من علماء الدين رحمهم الله تعالى، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2003، ص163، 223؛ تعريف ومعنى فرسخ في القواميس والمعاجم www.almaany.com/ar/ar-ar/dict

بأكملها لانها تنتج فضلاً عن النخيل انواعاً كثيرة من الأعشاب مثل السبانخ والهندباء وغيرها من الخضار وذلك في شهر تشرين الثاني وصاعداً. وطوال شهري حزيران وتموز ينمو المشمش اللذيذ جداً في بساتين كثيرة، ويكثر العنب في شهري تموز وآب، وينمو الرمان والليمون والبطيخ والرقي في شهر تشرين الأول، الا انه بسبب الرياح الجنوبية التي تهب خلال الموسم الحار الرطب لا يمكن حفظ تلك الفواكه. وفي البصرة أماكن كثيرة جميلة وعامة، من بينها الميدان الذي يقع مقابل قصر الوالي، ويكون واسعا جداً، وفيه (12) مدفعاً وضعت فوق حمالات بالقرب من القصر. كما كان في البصرة الكثير من الأسواق الجميلة [176].

يشتد الحر في هذه المدينة بشكل لا يطاق طوال اشهر تموز وآب وأيلول، لاسيما عند هبوب الرياح الجنوبية الشرقية فيصبح التنفس في المدينة امراً صعباً للغاية. ويذكر تيفينو ان في شهر تموز قبل وصوله الى البصرة مات (4.000) شخصاً بسبب رياح السموم خلال (20) يوماً، فخلال أوقات الحر ينام الناس فوق سطوح المنازل وليس لديهم ادراك بالمخاطر التي يسببها الهواء في ذلك الوقت، ويضطرون الى شرب الماء في كل لحظة، والماء ضار وكريه الطعم لانه من مياه القناة الضيقة التي تخترق المدينة قادمة من شط العرب وهي مياه موحلة جداً ومليئة بالاتربة. وليس بإمكان الأهالي الحصول على المياه الا من تلك المياه الرديئة. واقترح تيفينو حاجة المدينة لتنظيف الضفاف من الاتربة في أماكن مختلفة لجمع المياه في برك صغيرة ليتمكن السقاؤون من الحصول على المياه في أي وقت، اذ ان القذرين يقضون حاجاتهم ويغسلون ملابسهم في القناة فتكون المياه ضارة جداً فضلاً عن قذارتها. اما عند انتهاء الحر الشديد في البصرة نهاية شهر ايلول يصبح الهواء خطراً لذلك يجب على المرء ان يتدثر جيداً عند النوم في الهواء الطلق، اذ ترى افواه الكثيرين قد اعوجت بسبب ان ابتداءً من نهاية تشرين الاول حتى كانون الثاني يكون الجو بارداً ليلاً ويستمر حتى الصباح الى ما بعد شروق الشمس بساعتين او ثلاث [177].

ربما يؤدي الحر الى وفاة الكثير من الأهالي نتيجة رياح السموم والمياه الموبؤة، فضلاً عن عدم الادراك وقلة التوعية، الا ان الرقم الذي ذكره تيفينو للوفيات خلال 20 يوماً يعد عدداً مبالغاً فيه.

❁ الرحالة ابراهام بارسونز

قام ابراهام برحلته من حلب حتى الخليج العربي خلال الفترة 14 اذار 15-1774 نيسان 1775، ودخل القرنة في 10 تشرين الثاني 1774 التي تبعد من خليج البصرة الى مصب النهر العظيم -شط العرب- في الخليج العربي [178] نحو (40) فرسخاً، ووصفها بارسونز بانها: «مدينة كبيرة تقع عند اخر نقطة لبلاد ما بين النهرين، فتكون على ضفاف كلا النهرين، الفرات ودجلة. وهي النقطة التي تقابل «النهر العربي العظيم» الذي يسمى بهذا الاسم نتيجة اتحادهما عند هذه النقطة. وعلى هذه النقطة تم بناء دار للكمارك... وهذا الموقع جميل جداً، ويعتقد الاتراك حق الاعتقاد ان هذه النقطة هي المكان الذي كان يعيش فيه والدانا [179]... وجميع الأشجار والاعشاب هنا خضراء، ولا يبدو ان هناك مكاناً في الأرض اجمل من موقع القرنة هذا؛ فليس من الغريب ان يعتقد الاتراك انها كانت الجنة، لانني انا تصورت ذلك، مقارنة مع كل الأماكن التي رأيتها لحد الان... اما من ناحية المؤن، فلا توجد أماكن

(176) – Jean De Thevenot, Suite du Voyage de Levant; dans laquelle... il est traité de la Perse... et aussi des antiquitez de Tchehelminar et [...], seconde partie, publié par François Pétis de La Croix et le sieur de Luisandre, Paris, 1674, p309-310.

(177) – Ibad, p312-313.

(178) – التسمية من الباحثة، فالرحالة اطلق على الخليج العربي بـ «الخليج الفارسي».

(179) – حواء وادم عليهما السلام.

تضاهي هذا المكان الا القليل، سواء في الجودة او رخص الأسعار..» [180]. كانت كتابات بارسونز شديدة الدقة، حتى انه كتب عن مستوى الماء في شط العرب، وكيف يتأثر بالمد والجزر ولم ينسَ عمر القمر، فضلاً عن سرعة الرياح. وعند مصب خليج البصرة الذي يبعد عن الوكالة التجارية الإنجليزية في المدينة (3) اميال، كان يوجد في النهر طرادات او سفن حربية تابعة لشركة الهند الشرقية، وهي كل من فرقاطة «ريفينج» (Reving) المزودة بـ (26) مدفعاً، والطراد «إيجل» (Eagle) ويحمل (16) مدفعاً، والطراد «سكصس» (Success)، وكان يوجد سفينتان اخريان تحمل كل منهما (14) مدفعاً يقودهما ضابط صف بحري يعمل موظفاً في الشركة، ويتكون طاقمها من الاتراك وعدد قليل من البحارة الانجليز الا انها تحمل الرايات البريطانية، وهاتان السفينتان تم تشيدهما في بومباي لصالح باشا بغداد. وكان يوجد سفينتان تجاريتان انكليزيتين من البنغال، ومراكب قليلة تعود لمسقط وأجزاء أخرى من الخليج العربي [181].

وتعد مشاهدات بارسونز تلك ذات فائدة للباحثين والمهتمين بالسفن الحربية المتواجدة في مصب الخليج، اذ اعطى ملامح ما تمتلكه شركة الهند الشرقية من سفن وطرادات حربية في البصرة.

تقع البصرة على ارض منبسطة تبعد نحو (3) اميال عن ضفاف النهر العظيم لشبه الجزيرة العربية الذي يجري منه داخل المدينة خليج صغير صالح لملاحة سفن تبلغ حمولتها في أعالي البحار ما بين (50–60) طناً. وتقع البصرة «على خط عرض 30 درجة و45 دقيقة شمالاً، وخط طول 47 درجة شرقي لندن، وتبعد نحو مئة ميل من الخليج الفارسي الذي يصب فيه النهر، ونحو تسعين ميلاً عن القرنة، اقصى نقطة في بلاد ما بين النهرين، حيث يتحد نهرا دجلة والفرات» وأضاف: «يحيط المدينة سور وخندق عميق وواسع، ولها اربع بوابات وميناء للسفن، والاسوار مبنية من الطين، ويبلغ عرضها ما بين (20–25) قدماً، وفيها متاريس امامية عالية ذات فتحات صغيرة للبنادق والسهام (فالعرب ماهرون برمي السهام)، ولا تحيط هذه الاسوار المدينة من جهة اليابسة فحسب، وانما من جوانب الرافد ايضاً... وكل طرف يحميه حصن وبوابة تبعد عن المدينة ثلاثة اميال. وتنتشر في المسافة الممتدة بين البوابة والمدينة عدة الاف من النخيل وغيرها من الأشجار المتداخلة مع الرز في التربة، ويبلغ محيط الاسوار نحو (12) ميلاً. ومع ان نصف ما بداخل الاسوار غير مبني، الا ان المدينة كبيرة، وكانت مكتظة بالسكان قبل طاعون سنة 1773»[182]. وللبصرة بوابتان رئيسيتان كبيرتان على جهة اليابسة، وهما: بوابة بغداد، وبوابة الزبير، ويوجد خندق لا يحمي أي واحدة من البوابات بل يبعد عن كل جانب كثيراً، وعند فيضان خليج البصرة يمتلئ الخندق ويغمر الماء أساس الاسوار المبني من الاجر المفخور، عندئذ يسمح للماء بالدخول الى الخندق فتحبسه بوابات الفيضان. وللمدينة ساحة كبرى او الميدان؛ وهو كبير جداً يستخدم كسوق كبيرة للحبوب اذ تباع فيه الحنطة والبذور والحبوب بكل أنواعها بالجملة، كما تستخدم الساحة لتدريب الخيول، ويقع السراي او قصر الحاكم على احد جوانب الميدان، وهو واسع جداً الا ان بناءه ليس فخماً جدا [183].

جو البصرة حار جداً يفوق حر جو بغداد خلال (4) اشهر من العام، وغالباً درجة حرارته بين (112–116) فهرنهايت [184]. ويكون الجو خلال شهري كانون الأول وشباط بارداً جداً «**فيحلو للناس ان يجلسوا بالقرب من نار هادئة**». وتشيع الحمى في البصرة في الأشهر الحارة، بسبب الهواء

(180) – ابراهام بارسونز، المصدر السابق، ص117–115.
(181) – المرجع نفسه، ص118–117.
(182) – المرجع نفسه، ص121–119.
(183) – المرجع نفسه، ص126.
(184) – أي ما يساوي (46.67–44.44) درجة مئوية. والفهرنهايت هو وحدة لقياس درجة الحرارة ويرمز له بالرمز (F) سمي باسم منشئه العالم الفيزيائي الألماني دانيال غابرييل فهرنهايت(Daniel Gabriel Fahrenheit) عام 1724. fahrenheit/temperature/ar/com.convertworld.www

المشبع بالروائح الكريهة المنبعثة من المياه الراكدة ومن الطين في الخندق التي لا تجف ابداً، فضلاً عن المستنقعات. وبانتهاء تيار المد وعندما يدفأ الجو فإن رافد البصرة يبعث رائحة كريهة ونتنة((185)).

❁ الرحالة صموئيل إيفرز

اكد صموئيل إيفرز الذي وصل البصرة عام 1779 ان التقاء نهري دجلة والفرات هو موقع جنة عدن فيقول: «تؤكد الروايات القديمة على ان هذا المكان هو موقع الجنة، وان احد المؤلفين المشهورين، بعد وصف مختلف الآراء السائدة الخاصة بموقع الجنة الأرضية، يقدم هذه الإشارة من خلال الملاحظة التالية: الفرضية الثالثة التي تبدو محتملة جداً تضع عدن على موضع التقاء نهري دجلة والفرات، الذي يسميه العرب «شط العرب»، أي «نهر العرب»....» (186).

يقصد ايفرز بأحد المؤلفين المشهورين شارلس ثومبسون (Charles Thompson) الذي رجح بعد دراسته لفرضيات عدة ان الجنة الأرضية او جنة عدن تقع عند التقاء نهري دجلة والفرات، والذي يسميه العرب شط العرب او نهر العرب، وبعد حوالي (5) فراسخ ينقسم مرة اخرى الى قناتين تصبان في الخليج العربي(187)، وتبعد نقطة القاء نهري دجلة والفرات رحلة يومين عن مدينة البصرة، وهكذا فان شط العرب هو النهر الذي يخرج من عدن والذي يصب في الخليج العربي(188).

واكد الرحالة توماس هربرت (Thomas Herbert) الذي زار العراق عام 1628، بعد توضيح الكثير من الفرضيات عن الجنة الأرضية، ان نهري دجلة والفرات كانا يسقيان جنة عدن، من خلال منابعهما الكثيرة يتفرعان الى أربعة فروع احدهما نهر الكرخة في فارس، والآخر نهر الكارون، ليختلطا معاً في الخليج العربي مقابل البصرة (189).

وبالعودة الى ايفرز؛ فإنه يصف شط العرب عندما كان في طريقه من البصرة الى القرنة، قائلاً: «نهر جميل جداً، ضفتاه مزدانتان بانواع جميلة من النخيل. والمنطقة كلها ذات جمال أخاذ» (190)، ويصف القرنة: «المكان الذي توسط نهري دجلة والفرات؛ فالجانب الشرقي يغسله نهر دجلة، بينما يغسل نهر الفرات الجانب الجنوبي الغربي منه، فيتشكل «شط العرب»، الذي يجري جنوباً حتى البصرة، التي تبعد عن هنا نحو (70) ميلاً»، واضاف: «تبدو هذه المدينة]القرنة[مكتظة بالسكان ومحصنة بسورين من الطين، وخندقين. وهي في حالة خراب تام حالياً، ولا يتجاوز عدد سكانها (500) شخص. ومن اسوار المدينة القينا نظرة فاحصة نحو الصحراء» (191).

ويتضح ان ايفرز وصل البصرة والقرنة بعد حصارها واحتلالها من الفرس –سيأتي ذكره في المبحث القادم– لذلك فانه لم يشاهد سوى الخراب، وهذا ما قصده بـ «حالياً»، ولم يعط اكثر من هذا الوصف.

---

(185) – ابراهام بارسونز، المصدر السابق، ص123.

(186) – صموئيل إيفرز، المصدر السابق، ص24.

(187) – جاء في المصدر باسم الخليج الفارسي.

(188) – تعد هذه الفرضية الأكثر احتمالًا، وايدها بعض المؤرخون والرحالة والاساقفة والغواصون.
Charles Thompson, The Travels of the late Charles Thompson, Efq; Containing his Obser–
.vations on..., vol. III, London, 1767, p21–23

(189) – توماس هربرت، العراق وملاحظات شرقية في رحلة توماس هربرت سنة 1628، ترجمة وتعليق، انيس عبد الخالق محمود، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، 2013، ص64–59.

(190) صموئيل ايفرز، المصدر السابق، ص22.

(191) المصدر نفسه، ص24.

المبحث الثالث

الأوضاع السياسية في البصرة

❁ رحلة الاب فنشنسو

ان المنطقة –كما وجدها فنشنسو عام 1656– بعد ان خضعت لحكم السلطان [192] اصبح يعين حكام لادارتها كيفما يشاء وحسبما تتطلب مصالحه، الا ان بعد المنطقة عن إسطنبول جعلها في حالة قلقة باستمرار، وكان السلطان يخشى فقدها، ولأن ولاة البصرة يتمنون إدخالها تحت سيطرتهم، اسند الباب العالي ولاية البصرة الى شخص عربي يتوقع منه الولاء والخضوع، وبقي هذا الوالي موالياً وخاضعاً ويؤدي الرسوم المقررة في مواعدها لفترة طويلة من الزمن، الا ان طموحه ورغبته في السلطة كان ينمو في داخله حتى استقل في ادارتها بسبب ظروف الحكم العثماني في البصرة، وحث عرب المنطقة له على الاستقلال، ووعد البرتغاليين له بمساندته، فضلاً عن مساعدة العاهل الإيراني لتحقيق رغبته في السلطة. واستطاع خلفاؤه من بعده حفظ الاستقلال [193].

قصد الاب فنشنسو الحديث عن افراسياب [194] وكيف انتقلت السلطة السياسية في البصرة اليه والى أبنائه من بعده الذين حافظوا على استقلال البصرة. وهذه الاحداث بطبيعة الحال كانت قبل مجيء فنشنسو الى البصرة، لذلك كانت لديه بعض الهفوات منها ان افراسياب اشترى امارة البصرة ولم تعط

(192) – خضع العراق لحكم الدولة العثمانية عام 1534، والبصرة عام 1546، في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني (1520–1566). ينظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، ط5، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، (د.ت)، ص41–35؛ علي ظريف الاعظمي، المصدر السابق، ص80–79.

(193) – بطرس حداد، المصدر السابق، ص84.

(194) – **افراسياب باشا:** افراسياب باشا بن احمد بك بن حسين جلبي بن فرجشاد بن افراسياب بن سنادست التركي السلجوقي، وكانت امه من أهل البصرة من الدير واليها نسب مؤسس هذه الأُسرة افراسياب الديري. كان كاتباً للجند المحافظ (آغا سكماني) في البصرة، استطاع من شراء امارة البصرة من الوالي العثماني انذاك علي باشا بالف قرش، وأسس في البصرة امارة بصرية عربية مستقلة ملقباً نفسه بأمير البصرة على ان لا يقطع الخطبة باسم السلطان – محمد الثالث (1595–1603)–. اما علي باشا الذي باع حكومته تم اعدامه فور وصوله القسطنطينية. وبالرغم من عد افراسياب متمرداً في نظر الحكومة التركية فإنها تحملته وجاملته وكانت تساعده لانه كان قديراً في تدبير المدينة وسياستها. ومن جهة ثانية كان يعترف بها ظاهرياً، وحتى لا تفقد خضوعه الاسمي لها، ولم يكن من السهل معاقبته او عمل شيء لتبديل الأمور في البصرة فهي منطقة نائية عن إسطنبول قريبة من الأعداء، أخيراً كانت كلمته مسموعة في المدينة. استطاع افراسياب ان يوسع حكمه ويوطد دعائم النظام في خارج المدينة وضواحيها، وعم المدينة النظام والطمأنينة، وصار للامير علاقات بامم اجنبية مختلفة، واستمر والياً على البصرة لمدة سبع سنوات حتى وفاته نهاية عام 1624 او بداية 1625، ليخلفه ابنه علي باشا الذي استولى على الحكم بالقوة قبل ان يلفظ ابوه أنفاسه الأخيرة، وثبته السلطان في باشوية البصرة في 13 أيار 1625. ازدهرت البصرة تجارياً في عهد الاماراة الافراسيابية فضلاً عن قيام امرائها بتوسيع مدينة البصرة. اذ عم الاستقرار في عهد علي باشا بعد مقاومته للخطر الإيراني مرتين، وبسيطرته على القبائل العربية المنتشرة في الاهوار (منطقة الجزائر) وقرب الأنهار، واصبح بلاطه يقاس ببلاط هارون الرشيد فازدهرت الفنون والاداب والعلوم برعايته، ووجد المعلمون عنه ملجأ وملاذ، وادى الاقتصاد الحكيم والعدل المصون الى الاستقرار الذي أدى الى مزاولة النشاط التجاري في البصرة بكل امان بقدوم التجار الى البصرة من مختلف البلاد. واستمرت الامارة الافراسيابية في البصرة حتى عام 1669. للمزيد عن آل افراسياب ينظر: محمد الخال، تاريخ الامارة الافراسيابية او حلقة مفقودة من تأريخ البصرة، المجمع العلمي العراقي، العراق، 1961، ص4–3؛ ديللافاليه، رحلة ديللافاليه الى العراق (مطلع القرن السابع عشر)، ترجمة بطرس حداد، ط1، الدار العربية للموسوعات، لبنان، 2006، ص122؛ جان بابتيست تافرنييه، رحلة الفرنسي تافرنييه الى العراق في القرن السابع عشر 1676، ترجمة كوركيس عواد وبشير فرنسيس، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2006، ص72–71؛ لوريمر، المصدر السابق، ص1764؛ ستيفن هيمسلي لونكريك، المصدر السابق، ص153–126.

له من قبل السلطان.

اما حاكم البصرة «الحالي»[195]؛ فيقول الاب فنشنسو عنه انه كانت له طريقته الخاصة لتقوية استقلاله ودعم مركزه، اذ رأى ان من مصلحته كسب الأطراف جميعها من اجل حمايته؛ الشاه الإيراني، البرتغاليين والسلطان العثماني، فكان يرسل هدايا الى أصحاب الكلمة النافذة في إسطنبول من وزراء وغيرهم، كما كان يبعث الهدايا الى الشاه الإيراني لاظهار الولاء له دون الخضوع. وعن سياسته في الداخل ذكر الاب فنشنسو ان امير البصرة كان سيّئ السيرة والإدارة والسمعة، وكان الأهالي يشتكون منه لاسيما بعد حملة مرتضى باشا على البصرة، الذي كان واليا على بغداد، وأشار عليه الباب العالي بالتوجه الى البصرة في حملة تأديبية لاسيما ان أهالي البصرة كانوا يشتكون من اميرها، فأعد جيشاً قوياً سلك طريقين: الأول البري والآخر في دجلة والفرات، واستطاع مرتضى باشا هزيمة امير البصرة حسين باشا منذ الهجوم الأول، فقرر البقاء في البصرة والاحتفاظ بها تحت سلطته لاسيما بعد رؤيته للناس وهم يسرعون الى خدمته، وهطول الأموال عليه بغزارة، الامر الذي أدى فيما بعد الى مطالبة الأهالي بعودة حسين باشا الذي رفض الخضوع للغريب وأعد العدة للرجوع، وقام بشن هجمات أجبرت مرتضى باشا الى التقهقر والانسحاب خائباً. وبعد عودته الى البصرة تذرع حسين باشا بمختلف الحيل والوسائل من اجل انتزاع الأموال لاستيلاء الطمع عليه، ووضع ضرائب جديدة مختلفة لحاجته الى الأموال ليبذلها في كسب ولاء الشيوخ، وعقد صداقات جديدة، والاستعداد لحملات قادمة من اجل توطيد دعائم حكمه، بل «**وقاده طمعه الى القيام بامور لا تليق بمنزلته**» [196].

❁ الرحالة جان دي تيفينو

تحدث تيفينو عن والي البصرة –حسين باشا–، الذي لا يتم تغييره مثل بقية الولاة في الدولة العثمانية كل ثلاثة أعوام وانما يتغير بشكل وراثي، وكل وال يشتري حق الوراثة لابنه من خلال تقديم الهدايا الثمينة. وكان السلطان الأعظم –السلطان محمد الرابع (1687–1648)– طوال الأربع سنوات الماضية يرسل له حق وراثة الولاية لابنه [197] عن طريق «القبوجي» [198]، وكان حسين باشا يدفع سنوياً (1000) قرشاً [199] الى الباب العالي، لانه لا يستطيع ضمان وضعه الا عن طريق

(195) – أي عام 1656 كان الحاكم في البصرة حسين باشا بن علي باشا بن افراسياب، تولى البصرة بعد وفاة والده عام 1650، له شخصية قوية وطموح كبير، وحاذقاً وحسن التدبير، الا انه كان عنيفا وجائراً، ولم تكن لديه كياسة والده، وادى تساهله مع التجار الأجانب والأقليات النصرانية الضعيفة الى نفر أبناء بلاده. لكنه استطاع من توسيع البصرة اذ مد اسوار المدينة حتى النهر، وازدهرت التجارة في عهده باطراد، كما تحالف مع امم غريبة عدة اذ اصبح يرحب بكل من يأتي اليه. وكانت المدينة من الامن والحرية ما يجعل التجوال في شوارعها طوال الليل غير خطر. واستطاع من ارضاخ الكثير من القرى العائدة الى باشوية بغداد، حتى أصابه الغرور لغناه الطائل. وكان قوياً لدرجة مكنته من طرد القوات التركية المتقدمة نحو البصرة مرات عدة، وعندما لم يستطع الاستمرار والمقاومة فضلا عن زيادة الموالين لعدوه ترك ولايته نهائياً وفر الى ايران. واستطاع العثمانيون إعادة البصرة الى الحكم العثماني المباشر عام 1667 بعد دخولهم البصرة وقضائهم على الامارة. للمزيد ينظر: كارستن نيبور، رحلة نيبور الكاملة الى العراق، ترجمة سعاد هادي العمري ومصطفى جواد ومحمود حسين الأمين، مراجعة سالم الالوسي، ط1، دار الوراق للنشر، بيروت، 2012، ص50–48؛ ستيفن هيمسلي لونكريك، المصدر السابق، ص139.

(196) – الاب فنشنسو، المصدر السابق، ص85–84.

(197) – كان ابن حسين باشا حاكماً على مدينة القرنة. لوريمير، المصدر السابق، ص1769.

(198) – **قبوجي:** بمعنى البواب او حارس الباب، اسم يطلق عموماً على بوابي القصر، ورئيس البوابين يطلق عليه قبوجي باشي. للمزيد ينظر: حسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2004، ص108.

(199) – **القرش او الغرش:** عملة فضية عثمانية استعملت في اوائل القرن الثالث عشر الميلادي وتتراوح قيمتها بالدرهم بين 6 و8 و 4 و 5 و 1، و100 قرش يساوي ليرة ذهبية واحدة، كما اختلف وزنها. وهناك القرش المحمودي والقرش الصحيح (الصاغ) للمزيد ينظر: عباس العزاوي، تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية من سنة 656هـ–1258م

الهدايا فكان يُنفق القسم الأكبر من تلك الضريبة الى السلطانات ورئيس الخصيان والرجال المهمين في القصر بهدف المحافظة على علاقات وثيقة معهم، وبالرغم من ذلك ولعدم اطاعته السلطان، فان الأوامر أرسلت مرات عدة لوالي بغداد ليلتحق مع ولاة اخرين لعزل حسين باشا، ولأنه اضعف من ان يشن حرباً ضدهم اشترى السلام لنفسه، اذ ليس من السهل عليه مقاومة الولاة المجتمعين ضده لعدم ثقته بقواته التي كان اغلب الجنود فيها من الفارين الاتراك من حلب وبغداد وكانوا يتحينون الفرصة لعودتهم الى بلادهم، او من العرب الذين سرعان ما يفسدهم المال((200)).

يتحدث تيفينو انه قبل (14) عاماً ذهب اثنان من اعمام حسين باشا بعد مقتل اخيهما –علي باشا افراسياب– الى القسطنطينية طالبين من السلطان ولاية البصرة وولاية القطيف والاحساء((201))، ولبى السلطان طلبهما، وامر مرتضى باشا والي بغداد بعزل حسين باشا وتنصيب هذين الاخوين احدهما على ولاية البصرة والآخر على ولاية القطيف والاحساء. فتقدم في الحال مرتضى باشا الى البصرة واستقبل فيها استقبالاً مفرحاً، وعندما ادرك حسين باشا ان شعبه تخلى عنه نتيجة استبداده فر الى مدينة دورق الفارسية، واصبح مرتضى باشا دون قتال سيد البصرة. الا انه –بحسب ما يذكر تيفينو– لو احسن التصرف لكان بمقدوره ان يكون ملكاً، اذ انه بعد وصوله وتنصيب احد الاميرين العربيين والياً، قام باصطحابهما الى خارج المدينة وشنقهما، الامر الذي اثار استياء شديدا لدى الأهالي، ولم يقدم تفسيراً لذلك او الاكتفاء بقتل هذين الرجلين، وانما استدعى اعيان ووجهاء المدينة وامر بشنق (15 او 20) تاجراً منهم علناً، والاستيلاء على ممتلكاتهم، مما أدى الى غضب الجنود الذين ثاروا ضده، فاضطر الى الفرار بسرعة حاملاً معه ما يمكن حمله من ثروات البصرة. وبعد مدة قصيرة قام الرعايا باستدعاء الوالي الشرعي فعاد واستقبله الأهالي، وقيل ان الشاه الفارسي كان ينوي ارسال جيش مع الوالي لتنصيب نفسه على المدينة الا ان الامر وصل متأخراً بأنتهاء الامر ومغادرة الباشا وعودته الى البصرة((202)).

وفي تتمة الحديث عن الحياة السياسية في البصرة يذكر تيفينو ان وضع والي البصرة كان مهما جداً، اذ تمتد سلطته الى الجانب الفارسي لتشمل منطقتا قيبان جميعها التي تحد البصرة، ودورق التي تبعد ثلاثة أيام عن البصرة، وهي آخر مدينة فارسية على تلك الجهة، كما يسيطر على الجزيرة التي تبعد يومين شمالي البصرة، ويلتقي نهرا دجلة والفرات عند نقطة في تلك الجزيرة عند مكان فيه قلعة متينة البناء وهي القرنة التي تتحكم بحركة نهري دجلة والفرات، ونظراً لان القلعة وكل ما على تلك الجهة خاضع لوالي البصرة، فهو نسبياً بمأمن من مباغتات والي بغداد الذي لا يستطيع مهاجمة البصرة ان لم يسيطر على الجزيرة اولاً، الى جانب ذلك تمتد سلطة والي البصرة الى ميناء القطيف ومدينة الاحساء في بلاد العرب السعيدة، اذ احتل ميناء القطيف منذ (12) عاماً عندما كانت خاضعة للدولة العثمانية، اما مدينة الاحساء فأرسل لها شيخ عربي كبير مع كثير من العرب((203)) وعند وصولهم الى الاحساء فر الوالي وتركهم يدخلون المدينة بحرية، ونهبوها. الا ان الشيخ العربي استهزأ فيما بعد من والي البصرة واستدعى والي الاحساء وسلم المدينة له مقابل مبلغ من المال دفعه له والي المدينة، قائلاً

الى سنة 1335هـ–1917م، شركة التجارة والطباعة، بغداد، 1958، ص148–146.

(200) – Jean De Thevenot, op. cit, p314.

(201) – احمد بك وفتحي بك هما اعمام حسين باشا، وكانت القطيف والاحساء تابعة انذاك لامارة البصرة اسمياً. ستيفن هيمسلي لونكريك، المرجع السابق، ص140.

(202) – Jean De Thevenot, op. cit, p314–316.

(203) – ارسل قوة قبلية من بني خالد ورئيسهم –شيخهم– الامير براك لاحتلال الاحساء، وهم من العشائر الكبيرة في الاحساء. عباس العزاوي، موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين، العهد العثماني الثاني (1048هـ – 1638م/ 1163هـ – 1750م، مج 5، الدار العربية للموسوعات، لبنان، (د.ت)، ص88

انه لم يحتل المدينة من اجل والي البصرة وانما لنفسه هو، لكن والي البصرة ارسل في شهر تشرين الثاني 1664 جيشاً بواسطة السفن عدده –كما قيل لتيفينو– ما بين (5,000) او (6,000) رجلاً مع بعض المدفعية، الا ان الانباء التي انتشرت تؤكد ان عدد الجيش كان سبعة او ثمانية اضعاف الرقم المذكور. نزل الجيش عند ميناء القطيف وسار من هناك الى الاحساء التي تبعد عنه (3) أيام فقط، واستطاع السيطرة عليها دون مقاومة. فر والي الاحساء الى القسطنطينية شاكياً حاله الى السلطان الذي امر وعلى الفور ولاة كل من حلب، اورفا، ديار بكر، الموصل، وبغداد فضلاً عن ولاة اخرين وعددهم (8) بطرد والي البصرة من الاحساء وحرمانه من كل شيء وإعادة والي الاحساء الى ولايته، وبالرغم من ذلك كله فلم يخف والي البصرة، وتحسباً لهذا الموقف حصن الاحساء بارسال عدد كبير من المدافع، وفي الوقت ذاته ارسل رسائل الى الباب العالي لابلاغ السلطان بأن لا يشغل نفسه بهذا الغزو لانه على استعداد لدفع الضرائب عن مكتسباته الجديدة مساوية للضرائب التي كان يتلقاها سابقاً. ويقول تيفينو ان هذا الوالي سيتمادى في غزواته ولن يكتفي باقل من السيطرة على مسقط[204].

من الأمور التي أشار اليها تيفينو انه في طريقه الى البصرة من بندر ريق في فارس؛ وصلت سفينتان من البصرة تحملان الى الحاكم رسائل من الوالي –حسين باشا– يطلب منه ارسال (12) سفينة محملة بالجنود للدفاع عنه ضد الولاة السبعة الذين كانوا ينوون مهاجمته باوامر من السلطان لعدم امتثاله لبعض الأوامر، وبالرغم من انزعاج تيفينو ومن كان معه من هذه الاخبار الا انهم قرروا الذهاب الى البصرة مهما كلف الأمر[205].

وهنا لا بد من الإشارة إلى ان عدد الولاة قد تضارب عند تيفينو، الا ان عددهم كان (7) ولاة زحفوا بقواتهم الى البصرة في تشرين الثاني 1665، واستطاع حسين باشا من مقاومتهم الا انهم وبعد اتفاق استطاعوا من اعادة والي الاحساء، وبقاء حكومة البصرة بيد الاسرة نفسها على ان تنتقل من حسين الى ابنه افراسياب، وينسحب حسين باشا الى مكة، واخذ مبالغ مالية من حسين باشا الى السلطان. فنجا حسين باشا للمرة الثانية بفضل دهائه ومتانة سياسته ورجع الى البصرة في حكم ابنه الصغير اسمياً [206].

اما عن عائدات والي البصرة فيذكر تيفينو ان عائداته هائلة، وتأكد انها تبلغ ما لا يقل عن (800) الف قرش، بالرغم من انه ليس متعسفاً في فرضها. فدار الجمارك في البصرة تدر عليه مبلغاً محترماً، فهو يكلف مسؤولاً او كما يسمونه شاهبندر (Schah–Bender) –رئيس التجار– ويدفع له راتباً ليكون مسؤولاً عن كل ما يستلم. ويفرض على كل نخلة نصف شاهية في العام وهذا القسم من عوائده يعهد به الى رجل يدفع له (50) الف قرش سنوياً، كما يحصل الوالي من الفرس الذاهبين الى مكة على مبلغ كبير سنوياً، لانهم يمرون عبر البصرة فيبيع لهم الجمال بالسعر الذي يريده، ويدفعون له (35) جيكينا [207] للشخص الواحد ليرسل معهم (300) جندياً لحمايتهم تنتظرهم هذه القوة عند مكة وتعود بهم الى البصرة بهدف حمايتهم من اللصوص العرب لذا فإنهم يدفعون المال طوعاً. وعند عودة الحجاج الى البصرة يشتري الوالي جمالهم بسعر منخفض ويبيع لهم الخيول بسعر مرتفع جداً لاعادتهم الى منازلهم.

---

(204) – Jean De Thevenot, op. cit, p316–318.

(205) – جان دي تيفينو، المصدر السابق، ص123.

(206) – ستيفن هيمسلي لونكريك، المصدر السابق، ص145؛ عباس العزاوي، موسوعة العراق بين احتلالين، مج 5، المصدر السابق، ص102–91.

(207) – الجيكين: عملة ذهبية سابقة لجمهورية البندقية ظهرت عام 1284، كما تعرف باسم زكينو (zecchino) وبالعربي سكة وتعني سك النقود المعدنية، واستخدمت في فرنسا باسم(sequin) أي الترتر لان هذه العملة استخدمت فيما بعد في تزيين ملابس النساء، والترتر قرص زخرفي صغير لامع. www.treasuremealm.com/coinpapers/ dictionary

كما يأخذ من التجار المبلغ ذاته الذين يشترون الخيول منه اثناء الموسم لنقل بضائعهم، ولا بد لهم من شراء الخيول بالسعر الذي يروق له، لانه خلال ذلك الوقت بيع الخيول يكون ممنوع لاي شخص مهما كان، فضلاً عن انهم لا يجرؤون على بيع أي شيء في أي وقت اخر دون رخصة منه التي لا يمكن الحصول عليها من دون هدية .

الا ان والي بغداد قام بمحاولة سيئة وغير ودية، فمن خلال الرسائل دعا الفرس الراغبين بالتوجه الى مكة المجيء والمرور عن طريق بغداد واعداً بمنحهم حرية المرور بأمان مقابل (25) جيكياً للشخص الواحد. ومن اجل توفير (15) جيكياً توجه قسم كبير منهم عن طريق بغداد، ولم يذهب عن طريق البصرة الا نفر قليل[208].

ويمتلك والي البصرة بيوتا ريفية جميلة كثيرة، من بينها بيت يقع مقابل فتحة القناة الصغيرة للبصرة على الجانب الاخر من شط العرب [209].

❁ الرحالة ابراهام بارسونز

تناول بارسونز الحياة السياسية في البصرة اثناء تواجده فيها وبين كيفية تعيين اهم رجالات السلطة في المدينة، فيتم تعيين الحاكم او المتسلم وحاشيته القبطان باشا والمفتي والقاضي وآغا الانكشارية وشيخ العرب، ومدير الجمارك، أي الذين يشكلون حاشية المتسلم كلها بأمر من باشا بغداد [210]. وتصدر أوامر تعيين المناصب الدينية للجوامع (والكنائس) [211] من دائرة المفتي. ويقوم القاضي بصفته رئيس العدالة بمراقبة وتفحص سلوك القضاة في المدينة وضواحيها. اما زعيم العرب او الشيخ فيقوم بترؤس الدعاوى المدنية والجرائم الصغرى التي تحدث بين مواطنيه. وتحال الجرائم الكبرى والاعتداءات الى المتسلم ومجلسه للتحقيق فيها، ويحدث ان يحكم على شخص بالاعدام بأمر المتسلم دون محاكمة [212].

أورد بارسونز معلومات تاريخية مهمة وتعد نادرة عن الحصار الفارسي للبصرة عام 1775، وتعود أهميتها لكون الرحالة شاهد عيان للاحداث، وتناوله للموضوع بدقة اذ لم يترك شاردة او واردة خلال تلك الاحداث لم يذكرها. وفي الصفحات التالية سنحاول ايجاز ما كتبه الرحالة عن الحصار الفارسي للبصرة.

وقبل الدخول في احداث الحصار لا بد هنا من بيان ما ذكره بارسونز عن اسوار البصرة: يوجد للبصرة (8) متاريس [213] نصبت على كل منها (8) مدافع نحاسية تزن كل اطلاقة منها (12) رطلًا، كما يوجد (50) مدفعاً نحاسياً تزن كل اطلاقة منها ما بين (9–6) رطل، وتحمل هذه المدافع عربات نصبت حول الاسوار، لكنها تبدو غير صالحة للاستخدام، الا ان المتسلم [214] هم باصلاحها بحماسة

(208) – جان دي تيفينو، المصدر السابق، ص162–161.

(209) – Jean De Thevenot, op. cit, p323.

(210) – باشا بغداد اثناء رحلة ابراهام بارسونز هو حماد باشا اصبح حاكما عام 1774 وبقي سنوات عدة، وكان يهمل الأمور العامة وينصرف الى لهوه وحياته الخاصة. للمزيد ينظر: لوريمر، المصدر السابق، ص1840.

(211) – الاقواس من وضع صاحب الرحلة. والواضح انه استغراب لتعيين المناصب الدينية في الكنائس من قبل دائرة الإفتاء المسلمة.

(212) – ابراهام بارسونز، المصدر السابق، ص127–126.

(213) **المتراس:** جمعه متاريس وهو ما يستتر به من العدو وتحصن ورائه لاطلاق النار. وهو خشبة توضع خلف الباب لدعمه. جبران مسعود، الرائد، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، ص709.

(214) – تسلم سليمان اغا المملوكي البصرة في 22 شباط 1750، وساد البصرة في عهده الامن والهدوء والسكينة. وتسلمها مرة أخرى للفترة من 1768–1765، ومن 1768 حتى 1769 وعزل اثر احتجاجات قدمتها شركة الهند الشرقية بسبب سلوكه غير المرضي تجاه المسيحيين والبريطانيين، وتولى البصرة للمرة الثالثة في 1771 حتى 1776. لوريمر، المرجع السابق، ص1801–1800.

بعد وصول انباء اقتراب الجيش الفارسي من المدينة، كما امر بزيادة القذائف والبارود الذي يتم تصنيعه في المدينة. ويذكر بارسونز ان المدينة لا تستورد البارود ابداً بل يجهزون الأماكن الأخرى به؛ اذ يتم تصنيعه محلياً لوجود كميات كبيرة من الملح الصخري في المنطقة المجاورة. واقتصرت التحصينات على جوانب مصب الرافد على المتاريس الثمانية، فضلاً عن بطرية مكونة من (12) مدفعاً نحاسياً موزعة على مقرات القائد العسكري التابع للباشا، وتبعد اكثر بقليل من (100) ياردة جنوبي مصب الرافد [215].

وصلت في 15 كانون الثاني 1775 انباء من العاصمة الفارسية شيراز تفيد ان جيشاً يزيد على (50.000) رجلاً بقيادة صادق خان [216] غادر شيراز في طريقه الى البصرة لاحتلالها، مما أدى الى هلع الأهالي. وبعد وصول طليعة الجيش الفارسي في 16 اذار 1775 الى مصب شط الحويزة على جهة بلاد فارس في مدينة اسمها السويب تبعد (60) ميلاً عن البصرة ارسل القائد العام الفارسي مبعوثاً يحمل رسائل الى المتسلم والوكيل الإنجليزي هنري مور (Henry Moore) والشيخ درويش زعيم العرب، والى زعماء الأرمن واليهود، طالباً ان يرسل كل واحد منهم ممثلاً عنه للتفاوض بشأن دفع دية المدينة، الا ان المبعوث عاد دون إجابة من أي شخص.

كان في مقابل الجيش الفارسي جيش المراقبة بقيادة الشيخ عبد الله وهو امير عربي قوي، مهمة هذا الجيش كانت لعرقلة نزول الفرس على الجانب الاخر من النهر، وكان منظره فخماً ويضم عدداً كبيراً من الخيول، وخيامه نصبت بشكل منتظم، ويبلغ قوامه (15.000) رجلاً او اكثر جميعهم من المتطوعين. الا انه في يوم 17 اذار غادر جيش الشيخ عبد الله موقعه، الامر الذي أدى الى عبور الجيش الفارسي النهر بصورة غير منتظمة واستمروا بالعبور على مهل عبر عوامات لعدم وجود جيش يعيقه. وبرر بارسونز سماح المتسلم بنقل الجيش دون اعتراض مع استغراب الأهالي؛ ان المتسلم لم يكن يثق كثيراً في ضباطه او المقربين له بعيداً عن عينيه، كيلا يتخلوا عنه ويلتحقوا بالعدو، فاذا كان زعيم عربي مستقل ترك موقعه دون اطلاق طلقة واحدة، فماذا يتوقع من مرتزقة معظمهم مأجورون ومجبرون على أداء الخدمة العسكرية، ولا يملكون شيئا في المدينة او سواها، بل يتمنون التخلص من حبسهم داخل الاسوار في اقل إجازة للطعام. ووصف بارسونز متسلم البصرة بأنه شجاع ونشط ويقظ الا ان ضباطه لم يؤازروه من صميم اعماقهم، كما ان باشا بغداد كان متراخيا عديم المسؤولية تجاه التحذيرات والنجدات التي كان يطلبها متسلم البصرة لمواجهة الجيش الفارسي المكون من (60.000) رجلاً واغلبهم رجال قليلو الخبرة وغير مدربين، مع العلم ان باستطاعة الباشا ارسال جيش مكون من (20.000) رجلاً من اكفأ الرجال قادر على هزيمة الجيش الفارسي، الا ان باشا بغداد غير مدرك بأن اهل بغداد سرعان ما سيهجرون المدينة دون تجارة مفتوحة مع البصرة. اما حامية البصرة فتتكون من (1500) رجلاً وتعتمد كلياً على قوة بحرية بسيطة في النهر، ولو كانت تحت قيادة مناسبة فستكون كافية جداً لاعاقة اية احتياطات او تعزيزات ترسلها بلاد فارس عبر الشط وبذلك لا يستطيع جيشهم الصمود لمدة أطول لاسيما ان الوكالة تتحكم بالملاحة في النهر [217].

ومن الحقائق التاريخية التي ذكرها بارسونز تواطؤ بني كعب مع الفرس، ففي 22 آذار توجه (14) مركباً من مراكب قبيلة بني كعب الى اعلى النهر دون ملاحظة طرادات الوكالة الا بعد وقت

(215) – ابراهام بارسونز، المرجع السابق، ص122.

(216) – **صادق خان:** شقيق كريم خان الزندي (1779–1750) مؤسس الدولة الزندية (1794–1753) الكردية في فارس، ولدا في منطقة ملاير، وينتسبان الى قبيلة لك الكردية التي هي احد افخاذ قبائل اللر. ينظر: حسن كريم الجاف، موسوعة تاريخ ايران السياسي، مج 3، من بداية الدولة الصفوية الى نهاية الدولة القاجارية، ط1، الدار العربية للموسوعات، لبنان، 2008، ص140–135.

(217) – ابراهام بارسونز، المصدر السابق، ص133–131.

طويل، وبالرغم من الخلاف الدائم بين الفرس وبني كعب، الا انهم تغاضوا عن خلافاتهم هذه المرة بهدف تقاسم نهب مدينة البصرة الغنية. كان يوجد على ظهر سفن بني كعب الذخائر والمؤن، ويستطيعون حمل مدافع الفرس الثقيلة والخيول والخيام عبر النهر، وكل ما ستسنح لهم الفرصة بحمله خلال الحصار دون ادنى مضايقة تحت حماية البطريات التي نصبها الفرس على ضفاف النهر وهي كافية لمنع القوة البحرية الصغيرة التابعة للوكالة من عرقلتهم او مضايقتهم. اما الطرادات الانجليزية وزوارق الباشا فكانت تحاول التعرض لمراكب بني كعب من خلال مطاردتها ومواجهتها واستطاعت من الاستيلاء وحرق بعضها والحاق الضرر بمراكب أخرى قبل وصولها الى المعسكر الفارسي الذي يبعد نحو (60) ميلاً عن البصرة. ولان هذه المرحلة كانت حرجة بالنسبة للوكالة التجارية فقد قرر الوكيل التجاري مغادرة المدينة الى الطراد «إيجل»، كما أُرسلت الكنوز والنفائس عليه لانه مكان أمن اكثر من الوكالة التجارية [218].

وفي محاولة اخرى لافتداء البصرة طلب القائد العام الفارسي في 23 اذار من الوكيل البريطاني (20) لكاً [219] من الروبيات مقابل عدم اقتحام المدينة في غضون (5) أيام، الا انه وللمرة الثانية لم يحصل على جواب [220].

أبلغ الشيخ طعمه [221] المتسلم بانه في حال بقي الفرس مصممين على الزحف لحصار المدينة سوف يقوم بقطع ضفاف النهر وسيعرقل اية مجموعة مُغيرة من التسلل الى المنطقة بهدف التزود بالمؤن، ومن المعروف عن الشيخ طعمه انه يستطيع تنفيذ وعوده. وفي 2 نيسان عاد الشيخ عبد الله مع (15.000) عربي مع أسلحة و (300) رجل وفارس الى الزبير، من اجل الدفاع عن المدينة ومساعدة المتسلم بدلاً من اغراق المنطقة بالماء، وكان برفقته صديقه ونسيبه زعيم عرب البصرة الشيخ درويش. وفي 3 نيسان وصل من بغداد حوالي (200) انكشاري، حاملين معهم رسائل من باشا بغداد الى المتسلم بانه سيرسل تعزيزات كافية قريباً جداً لطرد الفرس [222]. وبعد يومين ارسل صادق خان احد ضباطه للتفاوض مع زعيم العرب الشيخ درويش. وخلال يومي 7–6 نيسان استطاع الجيش الفارسي الوصول على بعد نحو (3) اميال عن بوابة بغداد ونصب خيامه وعسكر بالقرب من المقر الريفي للوكيل في المعقل وقاموا بنهبه، وبدا المنزل مطوقاً بالخيام التي غطت رقعة من الأرض عرضها نحو (3) اميال، وطولها نحو (5) اميال، الا انه لم يتم تخمين عدد افراده، وبعد وصول الجيش بساعتين توجه الوكيل وصاحب الرحلة ابراهام الى الطراد «ايجل». اما بداية الاعمال العدائية بين الفرس والأتراك فانها بدأت منتصف النهار يوم 7 نيسان عندما قتل الاتراك (4) من الفرس اقتربوا من

---

(218) – المرجع نفسه، ص134.

(219) – **اللك:** الصلب المكتنز من اللحم. وهو صبغ احمر تفرزه بعض الحشرات على بعض الاشجار في جزر الهند الشرقية، يذاب في الكحول فيتكون منه دهان للخشب. وفي العدد (عند اهل ايران والهند واليمن) مائة الف، وعند (المولدين عشرة ملايين. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، الادارة العامة للمعجمات واحياء التراث، ط4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004، ص837.

(220) – ابراهام بارسونز، المرجع السابق، ص135.

(221) – امير عربي قوي يسكن مع قبيلته ذات العدد الهائل عند حدود النهر الى بضعة اميال فوق المنطقة التي خيم فيها الفرس على الجانب العربي.

(222) – تذكر بعض المصادر ان باشا بغداد لم يرسل الى البصرة أي مدد، بل كان المتسلم يبعث الامل ويقوي القلوب ويخبر بان الدولة أرسلت جيشاً سيصل عن قريب، ويقول مخاطباً لجيشه: «**ثابروا على الدفاع. ان بغداد بعثت كذا مقداراً من الجيش لمعاونتكم وانه واصل لا محالة**». للمزيد ينظر: عباس العزاوي، موسوعة العراق بين احتلالين حكومة المماليك 1162هـ–1740م/ 1247هـ–1831م، مج 6، الدار العربية للموسوعات، (د.ت)، ص63؛ الكسندر أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة هاشم صالح التكريتي، ج2، دار ميسلون للنشر، العراق، (د.ت)، ص166.

الاسوار متظاهرين بالشجاعة. كانت معنويات الأهالي مرتفعة سواء العرب ام الاتراك، وكان الرجال جميعهم يحملون بنادق ومسدسات ورماحاً، فلا احد يمشي او يأكل او ينام الا وسيفه ودرعه بيده. اما اسوار المدينة فكانت مجهزة بالرجال والمراقبة بشكل جيد، ولم يسمح لاي قادر على حمل السلاح بالانصراف سواء اثناء النهار او في الليل، وبالقرب من الاسوار نصبت خيام واكواخ حول المدينة باسرها، فضلاً عن استعداد القوة البحرية البريطانية لمواجهة السفن الفارسية كما وعد المتسلم بذلك. وكانت النسوة تملأ الاكواخ والسقائف القريبة من الاسوار بكل أنواع المؤن والفواكه للبيع، وكن يجهزن الرجال بالطعام نهاراً ويعدن الى بيوتهن ليلاً، ونصبت الخيام للبعيدين عن المكان لينامو بالقرب من الاسوار. وعلى مسافة قليلة داخل الاسوار يوجد خيام الأرمن واليهود الأغنياء المزودين بالمستلزمات المطلوبة ومسلحين طوال النهار والليل، وكان اباء الدير التابع للرهبان الكراملة المبجلين مصممين على مقاومة الفرس بأقصى قوتهم [223].

انقض الفرس على الاسوار فجر يوم 9 نيسان واستمر الهجوم (3) ساعات متواصلة. ومن الاحداث التي عاشها بارسونز خلال هذا الهجوم هي محاولته التوجه صوب مصب الشط للبقاء على ظهر احد الطرادات، وخلال مسيرته من الوكالة التجارية حتى مصب الشط تعرّض ومن معه لهجوم النسوة اللواتي كن يلقين الطوب والاحجار عليهم من سطوح المنازل ظناً منهن انهم فرس «**مع اننا طلبنا منهم بالعربية ان يكفن، واننا انجليز. فأجبنا: كذابون، انتم عجم بملابس انجليز**»، وتلقوا نتيجة هذا النزال ضربات بقيت اثارها أيام عدة. كما شاهد استعدادات الباشا وجنوده والأهالي وإجراءاتهم لمنع وصول الفرس من دخول الشط، وبقائهم صامدين حتى ازاحوا العدو. وبعد فشل الهجوم الفارسي عاد بارسونز ليتجول في المدينة عندها سمع من العرب والأتراك الذين التقى بهم «**كانوا يلعنونني ويلعنون رفاقي الانجليز، قائلين ان الوكيل الإنجليزي هو السبب الوحيد لكل مشكلاتهم الحالية**»، ولم يفسر بارسونز سبب تذمر الأهالي من الانجليز، بل استمر بالقول ان معنوياتهم كانت عالية ودافعوا دفاعاً باسلاً، ويركز على ان المسيحيين واليهود والأتراك اشتركوا في مواجهة الهجوم. ويذكر انه لم يتم التأكد من عدد القتلى الفرس لانهم قاموا بنقل قتلاهم قبل طلوع النهار، اما المدافعون فلم يتجاوز عدد القتلى منهم والجرحى (30) شخصاً. ومن المناظر المثيرة للذعر «**والقرف ان ترى الوحشية والبربرية**» التي عوملت بها رؤوس (21) قتيلاً من الفرس، اذ تم وضع (12) رأساً على بوابة بغداد، والبقية على بوابة الزبير، واغلب المارة يقوم بغرز رمحه في تلك الوجوه مع السباب والاهانات «**التي لا تجدها الا لدى أصحاب العقول المتدنية في معاملة عدو مهزوم مغلوب على امره**» [224].

من الاحداث المهمة الاخرى التي جرت اثناء الهجوم الفارسي؛ هروب الشيخ عبد الله من موقعه بعد سماعه انباء الهجوم الفارسي تاركاً خيمته منصوبة والجمال التي تستخدم لنقلها واعداد كبيرة من الماشية والاغنام والماعز، فضلاً عن كميات كبيرة من الحبوب، والآلاف من الخراف والحملان والماعز، والمئات من رؤوس الماشية والجمال التي كانت محملة بالحنطة والشعير والتبن والخيام والاكسية والمفروشات واثاث المطبخ، وقبل ان يشيع خبر فراره استطاع الفرس الاستيلاء على ما تركه الشيخ عبد الله والتي تعد مكسباً لهم، اذ حصلوا على امدادات كبيرة من المؤن التي كانت ستكفي أهالي المدينة ما لا يقل عن شهرين، ونقلت هذه المؤن الى معسكر الفرس على مرأى الناس المتواجدين على اسوار البصرة. وعد امر مجيئه الى الزبير بجيشه ومؤنته امراً متفقاً عليه مسبقاً بينه وبين الفرس[(225)].

وفي النهر استمر القتال بين الفرس والقوة البحرية البريطانية التابعة للوكالة ولباشا بغداد خلال المدة

(223) – ابراهام بارسونز، المصدر السابق، ص142–138، 147–146.
(224) – المصدر نفسه، ص145–143.
(225) – المصدر نفسه، ص146.

12–10 نيسان، اذ خاض الاسطول الفارسي[226] معارك متفرقة ضد الطرادات الانجليزية لاسيما شمال المدينة، مع استمرار وصول السفن المحملة بالمؤن للجيش الفارسي، الا انه لم تسقط ضحية واحدة من جانب المدافعين عن البصرة[227].

يرجح بارسونز ان سبب الحصار الفارسي على البصرة والنية في انتزاع المدينة يعود الى عام 1773 عندما أبقت الوكالة التجارية في بوشهر على القليل من الاعمال التجارية[228] لان السفن القادمة من الهند لم تكن تتوقف بشكل مستمر في بوشهر في طريقها الى البصرة كما اعتادت ان تفعل ذلك، ويرجع سبب التغيير الى وكيل الشركة في البصرة الذي اصدر أوامره الى ربابنة السفن جميعهم القادمين من الهند الى البصرة بعدم وضع اية بضائع على شاطئ بو شهر، وقد علم كريم خان بذلك وكان مغتاظاً جداً من الإنجليز، وعن طريق تبادل رسائل بين الوكيل والخان تم التغاضي عن كثير من المشاحنات، الا ان الوكيل لم يستطع إرضاء الخان الذي اعلن انه سينتقم بتدمير البصرة لانها تحتضن تجارة الهند مع الانجليز –وتستثني بلده–، فاخذ كريم خان يعد العدة منذ عام 1773 لتنفيذ تهديداته. وسعى لاغراق الأسواق بالسلع لينتقم لفقراء البصريين الذين هجروا المدينة لصالح من كان واجبهم ومصلحتهم مساعدتهم بأقصى ما يستطيعون. ويقول بارسونز عنهم: «**فلو تآزروا، ما كان بإمكان قوة فارس كلها انتزاع المدينة**»[229].

ولعل من المناسب ذكر بعض الاسباب الأخرى التي أدت الى الاحتلال الفارسي للبصرة، منها: رفض أهالي البصرة مشاركة الاسطول الفارسي الهجوم على عُمان لرغبة كريم خان اخضاع عمان التي كانت لها تجارة واسعة مع البصرة[230]. فضلًا عن اندحار جيش كريم خان في شمال العراق ووقوع قائده علي مراد خان اسيراً في أيديهم. وكما اسلفنا فإن عملية اخضاع البصرة ستؤدي الى احباط السياسة البريطانية والتي تهدف الى مقاطعة الموانئ الفارسية وجعل البصرة مركزاً رئيساً للتجارة. ومن العوامل الأخرى اتساع عوائد مدينة البصرة وتزايد أهميتها بعد تحول التجارة الهندية اليها وانسحاب بريطانيا من ميناء بوشهر؛ فتركزت التجارة في البصرة وازدهرت. ونتيجة للتذمر الذي ساد بعض قوات كريم خان أراد اشغالهم عن طريق اعلان الحرب على البصرة. وكأسلافه حكام فارس فالسياسة التوسعية كانت احد أسباب احتلال البصرة[231].

اما حجة كريم خان لتبرير عمله فكانت سوء المعاملة التي كان يتلقاها الزوار الفرس في العتبات المقدسة في العراق ومصادرة اموالهم، وتعذيب جماعة من سكان الكاظمية الفرس وضربهم بالعصيّ الامر الذي أدى الى وفاة احدهم[232]. فطالب برأس عمر باشا والي بغداد لإساءته معاملة التجار الفرس[233].

---

(226) – تألف هذا الاسطول من (30) سفينة غير كبيرة، سار هذا الاسطول بطريق البحر نحو مصب شط العرب في الوقت نفسه الذي تحرك فيه الجيش براً. ينظر: الكسندر اداموف، المصدر السابق، ص165.

(227) – ابراهام بارسونز، المصدر السابق، ص150–147.

(228) – اغلقت شركة الهند الشرقية الإنجليزية مركزها التجاري في بندر بوشهر عام 1768 ونقلت نشاطها التجاري باجمعه الى البصرة وكان هذا احد اهم الأسباب التي أدت الى الاستيلاء على البصرة. ينظر الكسندر اداموف، المصدر السابق، ص163.

(229) – ابراهام بارسونز، المصدر السابق، ص156.

(230) – كان في نية كريم خان الاستيلاء على منطقة عمان وسواحلها ليتخلص من هجماتهم على السفن التجارية الايرانية، وعندما هاجم صادق خان البصرة هب العمانيون للدفاع عنها، وبعد قتال بين الطرفين اندحر العمانيون وانسحبوا الى عمان. حسن كريم الجاف، المصدر السابق، ص166.

(231) – للمزيد ينظر: عبد الحكيم عجيل عبد الرزاق السعدون، المرجع السابق، ص26–25.

(232) – عباس العزاوي، موسوعة العراق بين احتلالين، مج 6، المرجع السابق، ص64–63.

(233) – عبد الحكيم عجيل عبد الرزاق السعدون، المرجع السابق، ص26.

وعند العودة الى حصار البصرة؛ فانه بالرغم من شجاعة المتسلم وثباته في الواجب للدفاع عن المدينة، فإن الحصار الفارسي استمر (14) شهراً تعرضت المدينة خلالها الى القحط الشديد واكل الأهالي فيها لحوم الكلاب والقطط وهلك الكثير من الناس[234]. دخل الفرس المدينة يوم 16 نيسان 1776، وأرسل صادق خان المتسلم سليمان آغا وبقية المفوضين العثمانيين اسرى حرب الى كريم خان في شيراز. وظلت البصرة تحت سلطة الاحتلال الفارسي حتى عام 1779 عندما ترك صادق خان المدينة بسرعة وعاد مع قواته الى فارس بعد موت أخيه كريم خان لإمله في الاستيلاء على العرش[235]، وبعد رجوع سليمان آغا ولبلائه المشهور في الدفاع عن البصرة أُنعم عليه بالباشوية وتمت اعادته لعمله السابق على ان يكون خاضعاً للباب العالي مباشرة لا لباشوية بغداد، وفي العام ذاته قام الانكشارية بعزل باشا بغداد حسين باشا واستطاع سليمان باشا بمعاونة البريطانيين ان يحصل على منصب باشا بغداد والبصرة [236]. وهكذا عادت المدينة الى حوزة السلطان العثماني دون بذل أي جهد من العثمانيين.

واخيراً غادر بارسونز البصرة في 13 نيسان 1775 قبل الاحتلال الفارسي للبصرة، قائلاً: «**وبالنتيجة، سيتمكن الفرس من الاستيلاء على البصرة لو ثابروا**» [237].

المبحث الرابع

الأوضاع الاقتصادية في البصرة

❁ رحلة الاب فنشنسو

وعن الأوضاع الاقتصادية في البصرة خلال القرن السابع عشر الميلادي وتحديداً عام 1656 تحدث فنشنسو انه ما بين القرنة والبصرة عند مدينة تدعى تورنيس (Tornes) أوقفت الرحلة عن السير لمدة يوم كامل لدفع أنواع الضرائب والرسوم التي تجمع لوالي البصرة. وهي مدينة واسعة «لا بأس بها» مربعة التخطيط، ولها سور يحيط به فرع من النهر غزير الماء، يحتوي السور على (15) برجاً من كل جانب. وعند وصول الرحلة الى المرفأ كان يرسو في الشط سفن إنكليزية وبرتغالية وهولندية وعثمانية، وهذا الامر كما يصفه فنشنسو افرح الوفد جداً لوجود سفن تقلهم الى الهند. وعند الوصول الى القنال وبسبب الجزر كان لابد من النزول من المركب ومرور كل شخص مع امتعته امام مركز لجباية الرسوم[238].

وهنا لا يعرف سبب فرح الوفد كما وصفه الاب فنشنسو عند رؤيتهم السفن، فمن المؤكد وجود سفن في مرفأ البصرة وهو القائل ان البصرة «**طبقت شهرتها الافاق لاسباب عديدة... هي قبلة الكثيرين من مختلف القوميات لانها محطة مهمة على الخليج العربي**»[239] ونستنتج من ذلك ان هناك تناقضا في كتاباته.

يتجمع في البصرة سنوياً في موسم الحج قوافل الحجاج لينطلقوا منها الى مكة المكرمة، ويأتي الكثيرون من ايران والهند، فضلاً عن أبناء المنطقة، ويدفع كل واحد منهم الى الأمير رسماً مقدماً قدره

(234) – عباس العزاوي، موسوعة العراق بين احتلالين، مج 6، المصدر السابق، ص64.
(235) – الكسندر اداموف، المصدر السابق، ص 167 – 168
(236) – لوريمر، المصدر السابق، ص1881–1880.
(237) – ابراهام بارسونز، المصدر السابق، ص150.
(238) – الاب فنشنسو، المصدر السابق، ص83.
(239) – المصدر نفسه، ص83.

قطعتان من «زكيتو»[240]، في مقابل المحافظة على حياتهم وارسال جنود لحراستهم في الصحراء. وصادف الاب فنشنسو احدى تلك القوافل وكان عدد افرادها كبير جداً، وقُدر عدد الحجاج بأكثر من (50.000) حاجّ. ومن ملاحظات الاب فنشنسو عن قوافل الحجاج انها كانت تضم اعدادا من المقعدين والشيوخ والمرضى، وخمن بان الكثيرين منهم سيفارق الحياة اثناء السفر، لكن علامات الفرح كانت مرسومة على وجوههم استعداداً لملاقاة ربهم، وهم يعدون من يموت اثناء طريقه الى الحج سعيداً. وفضلاً عن رسوم التجارة والحج تدخل على الأمير أموال طائلة تجمع من الرسوم والضرائب العادية، والهدايا الكثيرة التي يرسلها المريدون الخاضعون له[241].

ويتضح من خلال عدد الحجاج الهائل في القافلة، قيمة المبالغ الواردة سنوياً التي يجنيها الأمير من قوافل الحجاج فقط.

من مشاهدات الاب فنشنسو في مرفأ البصرة، وصول قافلة تحمل صبيانا وفتيانا من اليونان وروسيا وبولندا والمجر، جمعهم الاتراك لعرضهم وبيعهم في سوق النخاسة في البصرة، وحضر الكثير الى السوق لرؤية هذه البضاعة، وأضاف: «**ويشترون ما يريدون ويساومون على الثمن وكأنهم في سوق الغنم..**»[242].

ربما كان سبب امتعاضه ان الرقيق أوروبيون الا انه من الواضح ان سوق البصرة كان سوقاً نشطاً لكل أنواع البضائع حتى الرقيق الأبيض.

ومن الجدير بالذكر ان الدولة العثمانية لم تلغ تجارة الرقيق الأبيض الا في أوائل القرن التاسع عشر، لكن تجارة الرقيق الأسود استمرت قائمة حتى أواخر عهد الدولة العثمانية، ويفيد بعض المؤرخين أن تجارة الأماء استمرت قائمة حتى عام 1908.

❁ الرحالة جان دي تيفينو

ان مدينة البصرة كما رأها تيفينو يمكن ان تكون اغنى مدينة في العالم بسبب التجارة التي يمكن ان تتم فيها مع ارجاء المعمورة، فلديها ميناء جيد وآمن جداً يبعد عن البحر بدءاً من مياه شط العرب (12) فرسخاً، وهو عريض وعميق جداً تدخله السفن الضخمة دون خطر عليها. وتأتي الى ميناء البصرة السلع الأوروبية جميعها عبر البحر المتوسط عن طريق حلب ثم الى بغداد وتنقل منها الى البصرة خلال (15 او 16) يوماً عبر نهر دجلة. اما البضائع القادمة من بلاد فارس فتصل عبر ميناء كمرون[243] وكنج[244] (Comron & Congo) [245]. اما البضائع الهندية فتصل البصرة عبر الخليج

---

(240) – وهي العملة التي اشير اليها سابقا باسم زكينو.

(241) – الاب فنشنسو، المصدر السابق، ص85.

(242) – المصدر نفسه، ص86.

(243) – هو ميناء بندر عباس الحالي مركز تجاري ومرفأ مهم عند مدخل الخليج العربي على مضيق هرمز. عرفه الاوروبيون منذ القرن السادس عشر باسم «جمبرون» او «كوماورن»، واطلق عليه البرتغاليون هذه التسمية على سبيل السخرية فهي تعني في لغتهم برغوث البحر (الروبيان)، الا ان هناك من يربط هذه التسمية بالكلمة الفارسية «جميوك» التي تعني ضرائب جمركية او بيت الجمارك. وكمرون مشتق من الفارسية والتركية. للمزيد ينظر: مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج4، دار رواد النهضة، لبنان، 1995، ص198–197؛ iranicaon–.www//:http articles/org.line

(244) – **بندر كنج**، بندر كنگ بالفارسية:يقع على ساحل الخليج العربي الشرقي جنوب ايران. ينظر: محمود العوضي، سواحل ايران المطلة على الخليج عربية الهوية والتاريخ، جريدة ايلاف اليومية الالكترونية، تاريخ النشر 22/4/2011، news/Web/com.elaph.www

(245) – هكذا وردتا في النص الاصلي الفرنسي.

العربي[246]. وتشحن البضائع القادمة من البحر الأحمر وبلاد العرب السعيدة من ميناء القطيف الذي يبعد عن البصرة (8) أيام. وبذلك، يتم تبادل أنواع البضائع من بلد لآخر في ميناء البصرة فيحل رخاء لا حدود له في المدينة. ومع ان الوضع الحالي ليس على هذا النحو –يقصد في الفترة التي وصل فيها البصرة وهي نهاية شهر تشرين الأول– الا انه يرسو الكثير من السفن هناك لاسيما بعد تدمير ميناء هرمز[247]، يذكر تيفينو ان السفن تأتي البصرة خلال الموسم –بحسب تسمية اهل المنطقة– والذي يبدأ من شهر تموز وتبقى هناك حتى نهاية شهر تشرين الأول، وبانقضاء الموسم لا تستطيع السفن بعد ذلك الخروج من النهر بسبب الرياح المعاكسة لاسيما في الموسم الذي تبدأ فيه حركة الإبحار الى الهند وتستمر حتى بداية شهر أيار[248].

أما عن بعض البضائع التي تنقل من البصرة بحسب مشاهدات تيفينو عند وصوله البصرة؛ فقد كان هناك (15) مركباً بعضها هولندية وبعضها –اسلامية– تحمل التمر بكميات كبيرة لتجهز به انحاء الهند كافة فيحققون بها ارباحاً طائلة. كما تحمل بعض الخيول التي يتاجرون بها في الهند والتي تدر مبالغ نقدية طائلة[249].

تطرق تيفينو الى الاوزان في البصرة فهي «البطمن» ويعادل (10) «منات تبريزي»، و«العطاري» الذي يساوي ثلث البطمن او (4) منات تبريزية، و«الكيل» ويسمى «المك» ويساوي (48) اوقية. اما النقود في البصرة فاعلاها قيمة الجيكين البندقي يساوي (7.5) عباسيات الا انه نادر جداً ويشتريه بهذا السعر الراغبون بالسفر الى الهند او يرسلون اموالهم الى هناك. وهم يرغبون بشراء القروش او الريالات القديمة منها او الجديدة. فالقديمة بـ (3.5) عباسيات، والجديدة بـ (3) عباسيات. كما يوجد «قرش ابو كيل» وهو نادر ايضاً ويعادل (15) «شاهياً بصرياً». اما العملة الاكثر تداولاً فهي فئة الخمسة شاهيات الفارسية وتعادل (5.5) شاهي بصري، وهذه الشاهيات قطع نقدية فضية رقيقة جداً سكها الوالي الى جانب سك قطع من فئة «شاهيتين»، واخرى من فئة «نصف شاهية» وهما ايضاً من الفضة، كما قام بسك «المانجور» وهي عملة نحاسية قيمة كل (30) منها شاهٍ واحد، وكل ستة تعادل بارة واحدة وكل (5) منها تعادل شاهياً واحداً. كما يوجد عملات نحاسية قيمتها (3) مانجور[250].

وعن الوكالة التجارية الهولندية في البصرة [251]؛ فيذكر تيفينو انه قبل وصوله البصرة بيومين احرق الهولنديون كمية كبيرة من القرفة في وكالتهم التجارية لان التجار امتنعوا عن اعطائهم السعر الذي طلبوه عن القرفة، مما اثار غضبهم واعلنوا بانهم سيحرقونها، وبالفعل التهمت النيران كمية كبيرة منها، اذ كانت رائحة القرفة تشم من المناطق المجاورة كلها[252].

غادر تيفينو البصرة في 6 تشرين الثاني 1665 على ظهر سفينة محملة بصبغة النيلة والاقمشة والسلع الهندية التي لا يمكن ان تباع في البصرة، فضلاً عن التمور و(10) خيول وبعض صناديق

---

(246) – وردت في النص الفرنسي باسم الخليج الفارسي.

(247) – ازدادت الاهمية التجارية للبصرة بعد انهيار النفوذ البرتغالي وسقوط هرمز عام 1622، اذ صفى البرتغاليون اعمالهم تماماً في فارس وبدأوا ينقلون بضائعهم الى البصرة، والحق هذا الطريق التجاري اضراراً بالغة بفارس الامر الذي ادى بهم الى مهاجمة البصرة عام 1625. للمزيد ينظر: لوريمر، المصدر السابق، ص 1761–1759.

(248) – Jean De Thevenot, op. cit, p310–311.

(249) – Ibid, p311–312

(250) – جان دي تيفينو، المصدر السابق، ص148.

(251) – استطاع الهولنديون منذ عام 1640 الحصول على اتفاق مع السلطة المحلية في البصرة لتأسيس مقيمية تجارية، فضلاً عن تأسيس معمل لإصلاح السفن. اسماعيل نوري الربيعي، ميناء البصرة واهميته في الاستراتيجية البريطانية (1)، جريدة ايلاف الالكترونية، تاريخ النشر 1/6/2006، ElaphWriter/Web/com.elaph.www

(252) – جان دي تيفينو، المصدر السابق، ص164.

الزجاجيات وبعض المرايا البندقية الكبيرة واكياس كبيرة عدة من النقود. ودفع ثمن رحلته من البصرة الى سورات (40) عباسياً او (10) قروش ريال للشخص الواحد، كما استأجر حجرة صغيرة بسعر (40) عباسياً[253].

❁ الرحالة ابراهام بارسونز

اوضح بارسونز ان موقع البصرة كان سبباً لتصبح ذات موقع تجاري مهم لوجود الميناء وتوافد الكثير من التجار، اذ قال: «**وبسبب موقعها الملائم أصبحت محلاً لتجارة عظيمة، لان التجار يستطيعون هنا شراء منتجات معظم أجزاء الهند وبلاد فارس وشبه الجزيرة العربية؛ اذ تقوم سفن تلك البلاد بنقل حمولاتها الثمينة من منشأها، او من مصانعها، الى هذا الميناء**». وأضاف «**ونتيجة لهذه المزايا يتوافد الى هنا الكثير من التجار الأرمن واليهود، فضلاً عن الاتراك والمسيحيين، مواطنين وأجانب..**»[254].

وكان القبطان باشا أو سيد ساحل البحر من جهة الخليج العربي تابع لباشا بغداد لشؤون القوات البحرية والنهرية من البصرة الى بغداد على نهر دجلة، ومن البصرة الى الحلة على نهر الفرات. وتدفع السفن التي تتاجر من البصرة وإليها عدا الانجليزية لقبطان باشا ضريبة عن كل طن عند الوصول وعند المغادرة، كما تدفع له قوارب الصيد ضرائب شهرية عالية جداً[255].

استطاع بارسونز من خلال مشاهداته إيصال معلومات دقيقة عن التعامل التجاري الذي يتم في البصرة وميناءها بين التجار الأجانب والمحليين من حيث المضاربة والتقدير والعمولة، واوقات البيع والشراء، وأهم طرق النقل البرية والبحرية التي تنقل فيها البضائع من والى البصرة، ونوع البضائع وقيمتها.

فيذكر ان التجار كانوا يشترون على أساس العمولة، او على حسابهم الشخصي بالمضاربة والتقدير، وفي أوقات معلومة للشراء يعيدون البيع مرة ثانية للتجار الأجانب الذين يأتون الى المدينة. اما عن العملة التي يتداولها التجار فغالباً ما كانت تستخدم الجيكنات الذهبية او الفضية التركية او الفارسية او البندقية. الا ان التجار القادمين من حلب يجلبون بضائع أوروبية للبيع، ويعودون ببضائع ثمينة من شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس، وتنقل من البصرة الى حلب عبر قوافل الجمال بالطريق المباشر او عن طريق البحر الى بغداد اولاً ومنها الى حلب عن طريق الجمال. وترسل السلع التجارية من بغداد الى سميرنا [256] والقسطنطينية. الا ان معظم الادوية ترسل الى الاسكندرونة وتشحن الى لندن والبندقية وامستردام ومرسيليا وليغون، ما عدا البضائع التي تحملها القوافل مباشرة من البصرة الى حلب بعد استهلاك كمية قليلة منها في البصرة. اما البقية وهي كميات هائلة فتذهب الى بغداد اولاً ومنها الى دمشق فالقسطنطينية –عن طريق ارضروم– وطرابزون في البحر الأسود، باستثناء ما يستهلك في بغداد وتوابعها[257].

اما عن الرسوم الجمركية، فكان باشا بغداد يتأكد دائماً من استلام تلك الرسوم التي تؤخذ مرتين؛ تدفع

(253) – المصدر نفسه، ص173–171.

(254) – ابراهام بارسونز، المصدر السابق، ص119.

(255) – المصدر نفسه، ص126.

(256) – **سميرنا:** اسم يوناني معناه «مر»، وهى مدينة في غرب آسيا الصغرى، تقع على بحر ايجة، وهي الان مدينة ازمير التركية وثاني اكبر ميناء تركي بعد استنبول، عرفت باسم سميرنا في القرن الاول ق.م. للمزيد ينظر: مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج6، (د.ن)، لبنان، 1996، ص284؛ بطريركية انطاكية وسائر المشرق للروم الارثوذكس، org.antiochpatriarchate.www

(257) – ابراهام بارسونز، المصدر السابق، ص121–119.

الأولى في البصرة والثانية في بغداد عن البضائع المرسلة من البصرة بنسبة قدرها 3% من الفرنجة (الأوروبيين)، وبنسبة 8% من الاتراك او الرعايا الاتراك او الفرس او غيرهم من الاسيويين. ويقدر قيمة السلع بما تساويه من قيمة عند وصولها لاي مكان. اما البضائع التي تنقلها القوافل مباشرة من البصرة الى حلب فانها لا بد ان تدفع ضريبتين واحدة عند الوصول والأخرى عند المغادرة. ولا يمكن لاية قافلة ان تغادر من البصرة الى حلب دون تصريح من باشا بغداد، ليأخذ نسبته البالغة 6% من الفرنجة، و16% من سواهم، ونصف هذه الضريبة على ما تم استهلاكه من بضائع في البصرة [258].

تغادر القوافل المتجهة الى حلب عبر بوابة الزبير التي تشكل الجزء الغربي من المدينة، وعندما يصلون الى مدينة الزبير التي تقع على بعد (12) ميلاً من البصرة تنزل الحمولات من الجمال بانتظار وصول القافلة بأكملها، وعند وصول كل مجموعة يقوم موظف في دار الجمارك بعد البالات والرزم الأخرى ومقارنتها مع العدد والكمية التي دخلت الجمارك، لانه يملك نسخة طبق الأصل من اعدادها وعلاماتها، ثم يقرر الضريبة المترتبة عليها. وعند الشك بحجم أي رزمة او بان مجموعة الرزم تحتوي على اكثر مما هو مثبت في حسابه فمن حقه فتحها وفحصها واذا كانت شكوكه في محلها تكون العقوبة الدفع عن تلك البالات ضريبة مضاعفة. وعند وصول القافلة بأكملها الى الزبير ترتب البضائع على الأرض بطريقة تسهل عملية عدها. وعندما يصل مدير الجمارك الى خيمته «وسط مظاهر التفخيم والتعظيم»، تُعد الرزم مرة أخرى بهدف الحصول على هدية من أصحاب البضائع، وتقدم الى مدير الجمارك الذي يأخذها ويسلمها الى احد الخدم بلا مبالاة ودون ان يعدها. ويطلع فيما بعد على الحساب العام لمحتويات القافلة بأكملها التي يكون مشاركاً فيها ويسلمها الى شيخ القافلة، وعندئذ تترك له حرية المغادرة متى شاء. وعند وصول احدى القوافل القادمة من حلب الى الزبير فلابد ان تنتظر وصول الموظفين لعد الرزم ثم يرافقون القافلة الى دار الجمارك في المدينة [259].

وعن الوكالة التجارية لشركة الهند الشرقية في البصرة يذكر بارسونز بانها تقع على ضفة الرافد، وبنايتها كبيرة ومريحة، وعلى الجانب المقابل للشط حديقة جميلة تعود للوكالة، وعلى بعد (5) اميال من بوابة بغداد يقع منزل وكيل الشركة في المعقل، والمنزل ريفي بسيط ومنظره جميل عند الدخول الى النهر العظيم والخروج منه، اذ يبعد عن ضفافه نصف ميل تقريباً. وعند بوابة الوكالة التي تبعد عن مصب ضفة الرافد (3) اميال تقوم سفن حمولة كل منها (80) طناً بتحميل وتفريغ البضائع. والبضائع التي تجلبها سفن إنجليزية تدفع ضريبةً ومكساً[(260)] لشركة الهند الشرقية قيمته 6%، متجاوزةً الضريبة التي تدفع الى باشا بغداد. وبما ان البضائع الهندية جميعها تأتي على سفن إنجليزية فانها تدر مبلغاً ضخماً سنوياً. وكانت تأتي قهوة مخا[(261)] الى البصرة غالباً عبر سفن عربية تعود لمسقط، فضلاً عن اللُبان والأدوية الأخرى في شبه الجزيرة العربية، واحياناً تقوم سفن انجليزية بنقل حمولة من القهوة من مخا الى البصرة. اما البضائع الفارسية فكانت تأتي دائماً الى البصرة عبر سفن فارسية. وفضلاً عن التجارة العظيمة لمدينة البصرة فان معظم البضائع الثمينة تُشترى من البصرة ومن المستورد ذاته، اذ ان معظم اللؤلؤ المستخرج من مصائد المحار في جزر البحرين سنوياً يأتي عبر وكلاء البصرة الى

(258) – المصدر نفسه، ص121.

(259) – المصدر نفسه، ص128–127.

(260) – **المكس:** جمعها مُكُوس، وهي ضريبة تؤخذ عن أشياء معينة عند بيعها او عند إدخالها المدن. ينظر: جبران مسعود، المرجع السابق، ص763.

(261) – **ميناء مخا او موكا:** بلدة وميناء على البحر الاحمر، كانت احد اهم المدن اليمنية واكثرها شهرة وعمراناً عندما كانت تزرع البن وتصدره، وكان الاجود في العالم والاطيب مذاقاً، ويعود اكتشاف البن اليمني الى اكثر من خمسة قرون مضت، وكان ميناء موكا مركز تصديره ومصدراً لثراء اليمن، لكن منذ اواخر القرن السابع عشر بدء يقل هذا الازدهار عندما قام الفرنسيون والهولنديون والانجليز بجلب غرسات من موكا وزراعتها في بلادهم. للمزيد ينظر: مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج 20، الشركة العالمية للموسوعات، لبنان، 2004، ص501.

المنطقة وينقل اليها مباشرة ((262)).

يتضح من خلال ما تم ذكره ان البصرة كانت في القرن الثامن عشر الميلادي من الموانئ التجارية العالمية للبضائع المختلفة، تحط فيه السفن رحالها من بقاع الأرض المختلفة، لتنقل عن طريق البر الى بغداد ومنها الى حلب والى دول أوروبا وبالعكس تنقل البضائع الأوروبية براً من الاسكندرونة حتى البصرة، ومنها تنقل بحراً الى موانئ العالم المختلفة. ولشركة الهند الشرقية حصة من الضرائب تفوق حصة باشا بغداد منها.

اما المؤن والأغذية في البصرة فيصفها بارسونز بانها من الأنواع الجيدة جداً ومعقولة الاسعار، واهمها: لحم البقر، لحم الضأن، لحم الجمال الذي يفضل العرب منها الصغار تحديداً، الزبدة وكان المسيحيون الأجانب (مثل الإنجليز وغيرهم) «**مولعين جداً بأسنمة ثيران البيسون، التي تنمو في اعلى الجزء الخلفي من رقابها بين عظمي الكتف**». وتنتشر الجمال في هذه المناطق باعداد كثيرة جداً، اذ يتم ارسال بضعة الاف منها سنوياً للبيع في حلب وغيرها من أجزاء الدولة العثملنية. كما يوجد في البصرة بعض الأصناف الجيدة من الاسماك النهرية، الا انها ليست وافرة جداً، وافضل الأنواع سمك «البُنّي» الكبير. وعن التمور قال بارسونز: «**فهي متوافرة في هذه المدينة وضواحيها اكثر من وفرتها في أي أجزاء أخرى من العالم، وهي الغذاء الرئيس لاعداد هائلة من السكان الذين يعملون في جمعه وتعليبه ونقله الى أي ميناء ومكان في الخليج العربي والهند. وليس للفقراء غذاء افضل من التمور، فهي مادة مغذية جداً**»، وان المنطقة الشرقية من البصرة عبارة عن غابة كاملة من النخيل. وبصفته سيداً على هذه الأرض فان باشا بغداد يأخذ ضريبة على التمور تبلغ اكثر من مئة الف تومان((263)) سنوياً. ومن التمور الفائقة الجودة يصنع العَرَق وسعره زهيد جداً، وتنتشر في البصرة مطاحن لطحن نوى التمر ويصنع منها الزيت، ويطعمون الأغنام والماشية بالعجينة المتبقية منها. كما أشار بارسونز الى طرق حفظ التمور في البصرة قبل اكلها وبيعها، وهي طريقتان، والاكثر استخداماً كانت: «**تترك معلقة على النخلة حتى تنضج تماماً.. ثم تكبس في زنابيل((264)) حتى تندمج مع بعضها لتصبح مثل العجينة او قطعة الحلوى. حينذاك تقدر بسعر اعلى، وتصبح حلويات غالية الثمن**»[265].

والحقيقة أن ابراهام بارسونز لم يترك ادق التفاصيل خلال مشاهداته في البصرة لم يذكرها او يصفها بدقة متناهية.

❁ الرحالة صموئيل إيفرز

قدم صموئيل في مدوناته فكرة عن العملة النقدية المستخدمة في البصرة عام 1779، وهي التومان، والقرش، اذ قال: «**استأجرنا مشحوفاً كبيراً بثمانية «تومانات» وعشرة قروش، لنقلنا الى لملوم التي تبعد نحو ستة أيام اعلى النهر....**»[266].

المبحث الخامس
الأوضاع الاجتماعية في البصرة

❁ رحلة الاب فنشنسو

جمعت البصرة في القرن السابع عشر الميلادي اقواماً مختلفة من العرب والفرس والأتراك واليهود

---

(262) – للمزيد ينظر: ابراهام بارسونز، المصدر السابق، ص124–123.

(263) – **التومان:** نقد ذهبي من النقود الإيرانية التي عرفت أيام العثمانيين، وهو شائع الاستخدام ويساوي (50) قرشاً صحيحاً، وعرف على ما ضرب من دينار ذهباً، وعلى المضروب من فضة. للمزيد ينظر: عباس العزاوي، تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية، المصدر السابق، ص173–172.

(264) – **الزنابيل:** مفرده زنبيل وهو وعاء، جراب، قفة. ينظر: جبران مسعود، المصدر السابق، ص421.

(265) – ابراهام بارسونز، المصدر السابق، ص125–124.

(266) – صموئيل ايفرز، المصدر السابق، ص24.

والغرباء والارمن والصابئة((267))، والنصارى من الطوائف المسيحية المختلفة، ويمارس الجميع شعائرهم الدينية بحرية. اما الأمير –حسين باشا– فانه يميل الى الاوروبيين بصورة خاصة، واظهر شعوره هذا في مناسبات عدة، وكان ينظر الى الآباء الكرمليين نظرة احترام وود ويعاملهم على قدم المساواة كالدراويش المسلمين، ويلبي طلباتهم، وكان دائم الزيارة الى الدير، ورئيس الدير على علاقة جيدة بالامير الذي اوصاه الا يمر أسبوع دون ان يزوره، واذا زاره كان الامير يستقبله ببشاشة واحترام، ويجلسه الى جانبه، ويفتح له قلبه ويسره في الأمور التي تشغل فكره ويطلب رأيه فيها. وخلال عودة الاب فنشنسو مع الوفد الى البصرة مرة أخرى في النصف الأول من شهر اب 1658؛ زار حسين باشا الدير وامر بشق ترعة على حسابه من النهر الى الدير لملاحظته لقلة الخضار في بستان الدير نتيجة قلة الماء ((268)).

كان هذا التصرف من قبل الوالي حسين باشا بطبيعة الحال ناتجا عن خشيته من فقدانه لامارة البصرة، فكان تقربه الى الكرمليين ومن ورائهم الدول الأوروبية حفاظاً على مصالحه ولاستمرار بقائه في منصبه، فهو يعلم جيداً بالدور الاوربي في المنطقة.

كان حسين باشا يعيش على اعصابه ويخشى ان تنتزع الامارة منه، وطلب اكثر من مرة وضع تخطيط للمدينة، وطريقة لتحصينها جيداً، والاستفسار عن مدى مقاومة التحصينات لعساكر السلطان، وكان يريد تحصين القرنة وتقويتها ليعيش فيها بسلام وامان. وباشر فعلاً بناء مخططين للمدينة بالقرب من النهر لكن توقف عن البناء لقلة الجص(269).

ذكر فنشنسو انه كان ينتشر في البصرة قبل قرون عدة بيوت الصابئة او نصارى القديس يوحنا(270)، على نحو (100) ميل طولاً، واقل من ذلك بقليل عرضاً، وتتكون المنطقة من جزر متعددة، «**يقطنها الى اليوم جمع غفير من أبناء هذه الطائفة. يتكلمون لغة قديمة خاصة بهم**»، والصابئة لا يخضعون لاحد عن طيب خاطر بل كانوا ينشدون الحرية، لهذا كان يتبدل ولاؤهم أينما وجدوا فائدة اكبر. اما العرب المجاورون للصابئة فكانوا يميلون الى السلطان العثماني اكثر منه الى الحكم الايراني(271).

فتحت البيوت العامة في البصرة باذن من حسين باشا وهي بيوت الطرب والغناء والرقص والأمور المشينة باختلافها، الامر الذي أدى الى ان تسوء سمعته جداً عند الأهالي، فهو ينافي تقاليد «الرب»، الا انه وفي الوقت نفسه كان يتذرع بالتقوى «المزيفة»، اذ شيد الامير مسجداً كبيراً على نفقته الخاصة ويذهب اليه كل يوم في محاولة منه لتغطية اعماله الشريرة بتعبد مزيف مليء بالرياء وتقوى كاذبة. وتجدر الإشارة الى ان الجامع الذي شيده الأمير واسع الارجاء وتزينه الزخارف والنقوش الفارسية. ومن الأمور الاخرى التي اثارت انتباه الاب فنشنسو قلة الجص الذي يجلب من اطراف الخليج، والافتقار الى الحطب الذي يشعل لفخر اللبن، لذا فان الناس في هذه الجهات يجمعون روث الحيوانات ويخلطونه بالتبن، ويعرض للشمس حتى يجف، ليستعملونه بعد ذلك كوقود لطبخ الطعام(272). الا انه لم يذكر نوع

---

(267) – **الصابئة:** ورد هذا الاسم في القرآن الكريم، واشتق مصطلح الصابئة من الكلمة المندائية الارامية صبا يصبوا والتي تعني التعميد وبالاستفادة من كلمة صبا اطلق العرب على الصابئة الذين تتم مراسيم تعميدهم دائماً في الماء الجاري اسم صبه ويعني المعمدين. للمزيد ينظر: سليم برنجي، الصابئة المندائيون دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيين، ترجمة جابر احمد، دراسات اجتماعية –1، دار الكنوز الادبية، بيروت، (د.ت)، ص50.

(268) – الأب فنشنسو، المصدر السابق، ص86–85.

(269) – المرجع نفسه، ص85.

(270) – أورد الاب فنشنسو فصلًا كاملا عن الصابئة، وتم ترجمته من قبل الاب بطرس حداد وهو الفصل الحادي والثلاثون: الصابئة او نصارى القديس يوحنا، لكن اسرة تحرير مجلة المورد ارتأت حذف هذا الفصل –بحسب هامش المجلة– لانطوائه على مردود طائفي يخدش عقائد المندائيين وعواطفهم. ينظر: المصدر نفسه، ص86.

(271) – المرجع نفسه، ص84.

(272) – المرجع نفسه، ص86–85.

المادة المستخدمة في بناء البيوت آنذاك عند قلة الجص واللبن.

❁ الرحالة جان دي تيفينو

يعيش في البصرة رعايا من العرب والصابئة، فضلاً عن بعض الفرس والهنود الذين يعيشون في عاصمة الولاية ولهم فيها معابد. يذكر تيفينو ان في البصرة لا يعيش أي افرنجي ما عدا الآباء الكراملة المبجلين الذين لهم دير يعلوه شعار الصليب، وفي الدير كنيسة تقدم خدماتها فضلاً عن الفرنجة الى الارمن والنساطرة الذين يرتادون المدينة خلال الموسم ويذهبون لاداء الصلاة، الا انهم لا يرتلون القداس فيها. ويحصل والي البصرة دائماً على بعض الهدايا من اولئك الرهبان «الطيبين». يرى تيفينو ان الفرنجة الآخرين كالبرتغاليين والهولنديين والانجليز لا يأتون الى البصرة الا خلال الموسم، ويغادرون بسفنهم عند نهايته[273].

لا يعقل ان تكون البصرة خالية من الاوروبيين الا في موسم النشاط التجاري، وهو القائل ان في البصرة وكالة تجارية هولندية[274]، فمن غير الممكن ان تغلق الوكالة ابوابها في البصرة بانتظار الموسم. والحال كذلك بالنسبة للانجليز.

يذكر تيفينو انه خلال اشهر الموسم –يقصد بذلك اشهر الموسم التجاري وهي تموز، اب، ايلول، تشرين الاول– ترتفع اسعار البيوت في البصرة الى معدلات اعلى من اسعارها خلال الاشهر الاخرى من العام، لان البصرة في ذلك الوقت تمتلئ بالاجانب القادمين من الهند بحراً، والقادمين من بغداد لشراء البضائع الهندية، اما الاشهر البقية فلا يبقى فيها احد سوى السكان المحليين[275]. ويلقى الفرنجة والاجانب الاخرين في البصرة خلال الموسم استقبالاً جيداً، ولا يجرؤ الاهالي على مضايقتهم او الاساءة اليهم، ويرتدي كل واحد منهم عمامة بيضاء او خضراء اياً كان دينهم، وبعد انتهاء الموسم غالباً ما يُبتز الفرنجة الذين لم يغادروا[276].

يمنع في البصرة الخمر او البراندي وتترتب على صنعه عقوبات صارمة بالرغم من كثرة العنب في المناطق المحيطة. ولكن من وقت لاخر يسمح الوالي للآباء الكراملة بصنع القليل منه مقابل مبالغ مجزية للحصول على الترخيص وهذا سبب عدم صنع كميات كبيرة منه، فيجلبونه من شيراز عند الاحتفال بعيد القداس ولترفيه عن الفرنجة المقيمين معهم[277].

خلال اشهر تموز، اب، وايلول –أي في موسم الحر– يستفحل في البصرة مرض شائع بظهور نوع من انواع الدمامل او الاورام الخبيثة التي تصيب الانسان بين الافخاذ والرقبة واجزاء كثيرة من الجسم؛ فما ان تشفى في مكان حتى تظهر في مكان اخر مرات عدة. ويعتقد تيفينو انه احد انواع الطاعون الا ان الاهالي اكدوا له انه لم يمت أي شخص بسبب هذا المرض، ومعظم الذين اصيبوا به نتيجة تناول التمور بافراط لاسيما الفقراء. لكن قبل ان يصل تيفينو بشهر واحد الى البصرة توفي قبطان يوناني لدى الاباء الكراملة بالقرح او الدمامل عندما ظهرت له في حنجرته واخذت تنمو نحو الداخل بدرجة كبيرة حتى خنقته[278].

---

(273) – جان دي تيفينو، المصدر السابق، ص164.

(274) – بقيت تمارس نشاطها التجاري في البصرة حتى عام 1752، عندما طرد البارون كينغاوزن (Kinghausen) من الميناء واغلقت المقيمية من بعده نتيجة لتخاصمه مع عدد من تجار البصرة والسلطات العثمانية. للمزيد ينظر: محمود شاكر، موسوعة تاريخ الخليج العربي، دار اسامة للنشر والتوزيع، الاردن، 2005، ص242.

(275) P312 ,Jean De Thevenot, op. cit.

(276) – جان دي تيفينو، المصدر السابق، ص164.

(277) – Jean De Thevenot, op. cit, p312.

(278) – Ibid, p312.

اسهب تيفينو في الحديث عن الصابئة في البصرة والذين يسمون «مسيحيي القديس يوحنا»[279]احياناً، فيقول تيفينو ان هذه التسمية خطأ فادح[280] لانهم اقرب الى الكفار منهم الى المسيحية، واكد له احدهم ان الصابئة مزيج من المسيحيين والاتراك –أي المسلمين– واليهود والكفار. واطلقت عليهم تسمية مسيحيين بسبب التعميد الذي يقومون به لاحياء ذكرى تعميد القديس يوحنا لمخلصنا –يقصد عيسى (عليه السلام)– اما طريقة التعميد فيقول تيفينو: انهم يعتقدون ان التعميد لا يتم الا بالماء الجاري وبناءً على ذلك فانهم يعيشون دائماً بالقرب من الانهار ولا يسكنون الاماكن الخالية من الانهار، وعند تعميد طفل فإن رجلاً يحمله الى ضفة النهر بصحبة احد كهنتهم، وعندما يصلان الى ضفة النهر يتلو الكاهن هذا الدعاء: «**باسم الحي العظيم؛ البركة لجميع المؤمنين؛ ولجميع المندائيين المصبوغين في الماء الحي، الذين للحي يشهدون؛ والاعمال الصالحة يعملون؛ وبمنداهيتي يعترفون؛ وللثلاثة ابناء جيل الحي المتألق يخشعون**»[281]. ثم يرش قليلا من الماء على رأس الطفل الرضيع ويردد الدعاء ذاته مرة اخرى، ويرش الماء مرة ثانية على رأس الطفل ويردد بعدها الدعاء للمرة الثالثة، ويرش الماء على رأس الطفل للمرة الثالثة، وبعد اتمام ذلك يحمل الطفل ويغطسه في النهر (3) مرات، وهذا كل ما يخص التعميد. كما انهم لا يكتفون بالتعميد مرة واحدة في حياتهم، بل يكررون هذه الطقوس سنوياً في خلال (5) ايام، فكل شخص يتعمد ويكرر التعميد كبيراً كان ام صغيراً، شاباً او كهلاً، ذكراً او انثى. اما اسرارهم المقدسة فهي فضلاً عن التعميد، القربان، الرهبنة والزواج، ولا يعترفون بالتوثيق ولا بمسحة الزيت المقدس ولا بالتوبة. وفيما يخص سر القربان المقدس فهو قربان بالاسم، فلا يرددون عبارات التكريس على خبز القربان المقدس الا بعض الادعية، ويصنعونه بنقع الطحين بالخمر والزيت، ويستخدمون خمر النذور المستخرج من العنب المجفف المنقوع بالماء، وبعد عصره يستخدمونه لإبلال الطحين الذي يصنعون منه القربان. اما الرهبنة فلديهم طبقة دنيا وطبقة عليا من الكهنة، لا يقيمون طقوساً كبيرة لترسيمهم لان الابناء يتبعون ابائهم في الكهانة بشرط بلوغهم (16 او 17) عاماً، وفي حال فشل الابناء يأتي اقرب الاقرباء، ويكفي ان يتلو عليه الكاهن بعض الادعية ليصبح كاهناً. اما زواج الصابئة فليبارك الكاهن على الزواج يأخذ قَسَم العروس بانها عذراء بحضور امرأة تستدعى لهذا الطقس، فتجعلها تُقسم بما يشاء، وزوجة الكاهن لا بد ان تتقصى وتقدم تقريراً عنها، ثم يقوم الكاهن بتعميد العريس والعروسة ويجعل كلاً منهما يدير ظهره نحو الاخر مردداً عليهما بعض الادعية، فيعقد الزواج. وعلى كل رجل ان يتزوج امرأتين سواء اكان من العلمانيين او من الكهنة، ويجب ان تكون نساء الكهنة جميعهن عذارى عند الزواج[282].

لا يعرف الصابئة الانجيل، وقداسهم عبارة عن بعض الصلوات، وتناول خبز القربان المقدس المصنوع بطريقتهم، وتناول الخمر المصنوع من العنب المجفف. ولا يتلى القداس في البصرة لعدم وجود كنيسة فيها لهم، ولا يعملون في ايام الاحاد، ولديهم (3) اعياد في العام؛ الاول في مطلع العام

---

(279) – **القديس يوحنا:** هو يحي بن زكريا عند العرب والمسلمين، ويوحنا المعمدان كما عرف بالادب المسيحي نقلًا عن الارامية، و يهانا او يهايهانا كما ورد في الادب المندائي، واقترن اسمه بالتعميد الذي كان يجريه في نهر الاردن لليهود وغير اليهود. ينظر: عزيز سباهي، اصول الصابئة (المندائيين) ومعتقداتهم الدينية، ط1، دراسات المدى 18، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، 1996، ص113.

(280) – تعود هذه التسمية الى القرن الاول الميلادي حينما كان يرى دعاة المسيحية الى اتباع يوحنا المعمدان كمسيحيين، بالرغم من ان واضعي الاناجيل كانوا يلمسون الموقف المناوئ للمسيحية عند تلامذة يوحنا، الا ارادوا بذلك اقناع اليهود عامة بالدعوة المسيحية، فضلاً عن اقناع اتباع يوحنا المعمدان بالذات الذين كانوا يبدون معارضتهم لاعتبار يسوع هو المسيح الموعود. لذلك كل من وفد على البصرة في القرن السادس عشر كانوا يحسبون الصابئة مسيحيين من اتباع يوحنا المعمدان. للمزيد ينظر: المصدر نفسه، ص121.

(281) – جان دي تيفينو، المصدر السابق، ص165.

(282) – المصدر نفسه، ص167–165.

الجديد بمناسبة خلق ادم ويستمر (3) ايام، والثاني بداية الشهر الرابع وهو عيد القديس يوحنا ويستمر كذلك (3) ايام، ويكون العيد الثالث في بداية الشهر السابع بمناسبة تعميد القديس يوحنا لمخلصنا ويستمر (5) ايام يتعمد خلالها الصابئة جميعهم مرة واحدة في كل يوم، ويسمون العيد الاخير بنجيا (Pendgia)[283]. اما اعتقادهم فهم لا يعترفون بالقديسين الاخرين الا بالقديس يوحنا ووالده القديس زكريا ووالدته القديسة أليصابات، وان يسوع المسيح (عليه السلام) خادم للقديس يوحنا. اما العالم الاخر فلا يعترفون بالاعراف بل بالحنة والنار فقط، ويقولون ان الاشرار بعد موتهم سيمرون فوق صراط ضيق تحرسه الاسود والثعابين وحيوانات اخرى مفترسة ستلتهمهم، بينما سيمر الاخيار عبر الطريق ذاته مباشرة الى الجنة مجتازين تلك الحيوانات، وانهم يتخيلون الجنة مثل الاتراك –المسلمين– بانها مادية، وبحسب ما يرى تيفينو انهم استعاروا من الاتراك الكثير من الخرافات التي تشكل جزءاً كبيراً من معتقدهم[284].

يأكل الصابئة لحم الحيوان الذي يذبحه الصابئي فقط، واذا مسه شخص من غير دينهم يعد نجساً فلا يأكلونه، والكهنة هم الذين يقومون بذبح الدجاج والخراف والسمك، وعند قيامهم بذلك يخلعون ملابسهم ويرتدون زوجاً من السراويل الداخلية البيضاء ويمرر خلالها حزام من الحبال ويلف الجسد بقميص داخلي ابيض فيه حبل ايضاً، وعمامة بيضاء يتدلى طرفها على الكتف الايسر، ومنشفة بيضاء حول الرقبة على شكل وشاح، وشريط قماش خشن وممزق تصنع منه عصابة تشبه العصابات التي تستخدم للتضميد لربط الذراع، وهي سبع قطع. بعد ارتداء هذه الملابس وعندما يريدون ذبح الدجاجة يتم غسل قدميها ومنقارها لانها تأكل الوساخة وتمشي عليها، الا انهم لا يغسلون الخراف لانها تأكل العشب فقط وليس الوساخة. وعند الذبح يقال دعاء بلغتهم. ويمتد القيام بتلك المهمة الى ابناء الكهنة عندما يبلغون (16 او 17) من العمر، بشرط ان يكون آباؤهم مارسوا تلك الوظيفة وبخلافه لا يسمح لهم بممارستها. ويذكر تيفينو انه دفعه الفضول لمشاهدة هذا الطقس السار. ومن معتقدات الصابئة ان كل شخص ليس من دينهم هو مدنس لذلك يحرص هؤلاء القوم على عدم الشرب من الاناء الذي يشرب منه غير الصابئي، بل يكسرونه اذا وقع بايديهم لكي لا يتلوث احدهم لو شرب به. وعندهم خرافة غريبة اخرى وهي بغضهم اللون الازرق؛ كبغض اليهود لحم الخنزير لسبب تافه جداً. ويقولون ان اليهود عندما علموا من خلال كتبهم بان التعميد سيهدم شريعتهم لجأوا الى الحيلة بالقاء كمية كبيرة من صبغة النيلة في نهر الاردن لافساد الماء حينما علموا ان القديس يوحنا بصدد تعميد «سيدنا»، ولكن الرب ارسل ملاكاً يحمل اناء مليئا بالماء النقي من مكان اخر في نهر الاردن فقام القديس يوحنا بتعميد «سيدنا» عنده، وهذا رأي العامة، لكن احدهم اطلع تيفينو بان السبب الحقيقي وراء بغضهم للون الازرق هو ان غائط الكلب يستخدم في صنع تلك الصبغة والكلب يعد عندهم حيواناً نجسا [285].

يعمل معظم الصابئة صاغة، الا ان جميعهم فقراء، ويعيش عدد كبير منهم في البصرة على طول القناة، ويعيش بعضهم في قرى الجزاير، لكن القسم الاعظم يعيشون في هرويز وشوشتر، والمدينتان خاضعتان لملك فارس في اقليم خوزستان، وتبعد المدينة الاولى عن البصرة (4) ايام ويرويها نهر الكرخة الذي يصب في نهر دجلة فوق مكان التقائه بنهر الفرات بقليل، ومدينة شوشتر هي المدينة الرئيسة في خوزستان وتبعد (8) ايام عن البصرة ويرويها نهر الكارون. والصابئة جهلة بشكل متطرف، وحكماؤهم لم يدرسوا الدين بإمعان، ولديهم كتابان تم تدوينهما قبل مدة ليست طويلة، الا انهم يذكرون

(283) – هكذا وردت الكلمة في النص الفرنسي.

عيد پنجه: يسمى بالعيد الخماسي حيث يتساوى فيه الليل والنهار ويستمر لمدة (5) ايام واسمه من لفظه الفارسي أي خمسة. عبد الرزاق الحسني، الصابئة قديماً وحديثاً، ط1، مكتبة الخانجي، مصر، 1931، ص49.

(284) Jean De Thevenot, op. cit, p325–326.

(285) – Ibid, p326–327

ان تاريخهما يعود الى عصر ادم. يذكر تيفينو انهم اغبياء ودليله على ذلك انهم لا يعرفون عدد الاشهر في سنتهم عندما سألهم عنها واجابوه ان عليه ان يسأل شيخهم، ويعقب تيفينو ان هذ الجواب ينطبق على أي شيء اخر. ومع ذلك فانه في شهر تشرين الثاني «من العام الحالي» 1665 عندما شاهد قربان الدجاج طرح عليهم الكثير من الاسئلة حتى علم في النهاية ان عامهم يتكون من (366) يوماً، أي (12) شهراً وكل شهر (30) يوماً، الى جانب (6) ايام اضافية، وان يوم 2 تشرين الثاني هو الـ 20 من شهرهم الاول، فسنتهم تبدأ في 13 تشرين الاول، وان عيدهم الاول يبدأ في هذا العام، والعيد الثاني بعد (3) اشهر، وبعدها بـ (3) اشهر يبدأ العيد الثالث. اما اعمارهم فلم ينجح تيفينو في معرفة أي شيء عنها بالرغم من انه عمل ما بوسعه [286].

❁ الرحالة ابراهام بارسونز

يتراوح عدد سكان البصرة وغالبيتهم من العرب ما بين (90–80) الف نسمة، رجالاً ونساءً واطفالاً، بعد ما كان عددهم (300,000) نسمة، ويعود سبب انخفاض عدد السكان الى مرض الطاعون الذي أصاب الأهالي في البصرة منذ شهر نيسان حتى أيلول عام 1773، اذ سقط الكثير ضحايا لضراوته، فضلاً عن هروب (12) الفاً [287]. ونتيجة لشدة المرض الذي أصاب المدينة انذاك ترك الوكيل وموظفو الوكالة التجارية البصرة مستقلين طرادين تابعين للشركة بهدف الذهاب الى بومبي[288].

اما مساجد البصرة وبيوتها فكانت مبنية من الاجر المفخور، ولم تكن فخمة جداً الا بيوت التجار والاعيان فهي كبيرة ومريحة ذات طابق ارضي وعلوي، تحتوي على مستودعات ومخازن لخزن البضائع، كما تحتوي البيوت على قاعة كبيرة مقابل الباب وهي اهم جزء في البيت صيفاً، اذ تجتمع العائلة لتناول العشاء، وتستخدم كممر او كشيء من هذا القبيل شتاءً. وبسبب تواجد الماء على عمق (6) اقدام في انحاء المدينة جميعها لا يستخدم أهالي البصرة السراديب مثل اهل بغداد[289].

كان يسكن البصرة الأرمن واليهود فضلاً عن دير تابع للرهبان الكراملة، ويذكر بارسونز ان هذه الطوائف من ضمن الأهالي التي قاومت الحصار الفارسي[290].

الخاتمة والاستنتاجات

توصلت الدراسة إلى ان الرحالة الأوروبيين أعطوا صورة تاريخية عن البصرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر واضحة ودقيقة نتيجة لتدوينهم ادق التفاصيل والحوادث التاريخية، كما انها تركت بصمة في التاريخ الحديث لا يمكن اغفالها وانما عدها من اهم المصادر التي تناولت البصرة في التاريخ الحديث، وبغض النظر عن اهداف وغايات الرحلات والرحالة، فان البصرة احتلت مكانة بارزة في رحلاتهم ومدوناتهم بسبب موقعها الاستراتيجي، ومكانتها التجارية المهمة.

اعتمدت الباحثة على نماذج محددة من الرحالة الذين زاروا البصرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، لقلة الدراسات الاكاديمية عنهم وعن رحلاتهم، ولاختلاف أهدافهم وغاياتهم التي بسببها زاروا البصرة، ولاختلاف اصولهم ودولهم، بهدف الوصول الى الحقيقة التاريخية نتيجة لاختلاف الثقافات والرؤى لديهم اولاً؛ ولاثبات ان التوافد الى البصرة لم يكن حكراً على فئة معينة او لغاية محددة.

كما توصلت الدراسة الى ما يلي:

---

(286) – Ibid, p327–328.

(287) – ابراهام بارسونز، المصدر السابق، ص124، 126، 141.

(288) – المرجع نفسه، ص154.

(289) – المرجع نفسه، ص122.

(290) – المرجع نفسه، ص146.

1 – إجماع أصحاب الرحلات على ان مدينة البصرة هي مدينة جميلة لاسيما مكان التقاء نهري دجلة والفرات والقرنة وشط العرب، بل اكد بعضهم حينما تم اجراء بعض الدراسات ان جنة عدن الأرضية هي مكان التقاء نهري دجلة والفرات. وأعطى اغلبهم وصفاً دقيقاً عن البصرة وتحديداً موقعها، جوها الحار والرطب، بساتينها، انهارها، غابات النخيل، اسوارها، مصبها في الخليج العربي، وميناءها.

2 – أصبحت البصرة امارة مستقلة ولم تستطع الدولة العثمانية فرض حكمها على المدينة بل أصبحت اكثر امنا واستقرارا وازدهارا في عهد الاسرة الافراسيابية والتي انتهت بفساد آخر امرائها وتكاتف الولاة على انهائها. اما اهم الاحداث السياسية التي تعرضت لها البصرة هو الحصار الفارسي عام 1775 واحتلال البصرة الذي كان احد اهم أسبابه النشاط التجاري للمدينة، وخيانة بني كعب وبعض شيوخ البصرة، الا ان اغلبية الأهالي تكاتفوا مع الوالي للدفاع عن البصرة والحيلولة دون احتلالها من الفرس.

3 – عاشت البصرة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر فترة من الازدهار الاقتصادي، اذ قصدها التجار من مختلف الدول لاسيما الانجليز والهولنديين والبرتغاليين والأجانب الذين مارسوا الاعمال التجارية في المدينة، وتحسن وضع البصرة خلال القرنين استراتيجياً، وبالرغم من منظر المدينة الكئيب الذي أشار اليه اغلب الجوالة والرحالة الا ان ثروتها فاقت المدن اذ كانت مركزاً تجارياً دولياً لبيع وشراء ونقل السلع التجارية المختلفة. كان نشاطها التجاري برياً وبحرياً وتحديداً التجارة البحرية اذ كانت تصل ميناء البصرة لاسيما في الموسم سفن لا حصر لها سواء أوروبية او فارسية او عربية، بل أصبحت محط الأنظار ومطمع الدول الأخرى عندما اخذت شهرتها تتعدى الموانئ الفارسية بعد إيقاف العمل في ميناء أبو شهر الفارسي، فتعرضت المدينة لحصار فارسي واحتلال دام لاعوام عدة. الا ان البصرة بقيت المرفأ التجاري ولم تقتصر شهرتها على السلع التجارية بل كانت مكان تجمع وانطلاقة الحجيج الى مكة المكرمة من ايران والهند. وليس بالإمكان ان نذكر البصرة ولا يذكر الى جانبها النخيل والتمور والتي كانت الأولى في زراعة بساتين النخيل والمصدر الأول عالمياً للتمر. استفاد الولاة والامراء سواء العرب او الترك او المماليك من توليهم البصرة من خلال حصولهم على نسبة من الضرائب والمكوس التي تؤخذ على البضائع، وكانت تتخذ قرارات اغلبها لصالحهم. كان في البصرة دائرة للجمارك لاستيفاء الضرائب على السلع التجارية الواردة للمدينة والخارجة منها.

4 – ونتيجة لتمتع البصرة بالاستقرار السياسي والانتعاش الاقتصادي لم يكن أهالي المدينة من العرب المسلمين فقط بل كان فيها الأرمن واليهود والمسيحيين والصابئة فضلاً عن الترك، وشجع ولاتها الأقليات غير المسلمة على القيام باعمالهم التجارية واعطائهم الحرية في ممارسة معتقداتهم الدينية، اذ كانت الأقليات الدينية تمارس طقوسها الدينية بكل حرية وبدون أي مضايقات من السلطة المحلية في البصرة، لذا كان في البصرة جامع ودير ومعبد وتساوى الجميع في العيش في البصرة بامان واستقرار، بل كان دير الرهبان الكرمليين ذا نفوذ. كان هناك قاض يمارس الاحكام القضائية العدلية ويعين من قبل والي البصرة أيام حكومة افراسياب لا من الباب العالي.

المصادر

اولاً: الرسائل والاطاريح الجامعية

1 – السعدون، عبد الحكيم عجيل عبد الرزاق، البصرة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر دراسة في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، رسالة ماجستير غير منشورة، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، 1989.

2. ثانياً: الكتب العربية والمعربة

1 – أداموف، الكسندر، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة هاشم صالح التكريتي، ج2، دار ميسلون للنشر، العراق، (د.ت).

2 – الاعظمي، علي ظريف، مختصر تاريخ البصرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2017.

3 – ايفرز، صموئيل، رحلة صموئيل إيفرز من البصرة الى البحر المتوسط سنة (1779)، ترجمة وتعليق: انيس عبد الخالق محمود، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013.

4 – بارسونز، ابراهام، رحلة ابراهام بارسونز من حلب الى الخليج العربي (1775–1774)، ترجمة وتعليق: انيس عد الخالق محمود، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013.

5 – برنجي، سليم، الصابئة المندائيون دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيين، ترجمة جابر احمد، دراسات اجتماعية

1-، دار الكنوز الادبية، بيروت، (د.ت).
6 – تافرنييه، جان بابتيست، رحلة الفرنسي تافرنييه الى العراق في القرن السابع عشر 1676، ترجمة كوركيس عواد وبشير فرنسيس، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2006.
7 – تيفينو، جان دي، رحلات جان دي تيفينو في الاناضول والعراق والخليج العربي (1665-1664)، ترجمة وتعليق انيس عبد الخالق محمود، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013.
8 – الحسني، عبد الرزاق، الصابئة قديماً وحديثاً، ط1، مكتبة الخانجي، مصر، 1931.
9 – الخال، محمد، تاريخ الامارة الافراسيابية او حلقة مفقودة من تأريخ البصرة، المجمع العلمي العراقي، العراق، 1961.
10 – ديللافاليه، رحلة ديللافاليه الى العراق (مطلع القرن السابع عشر)، ترجمة بطرس حداد، ط1، الدار العربية للموسوعات، لبنان، 2006.
11 – رخا، سعيد، رشيد في عيون الرحالة والمستشرقين (خلال القرون 19-16م)، ط1، مؤسسة الامة للنشر والتوزيع، مصر، 2019.
12 – روبينز، نك، الشركة التي غيرت العالم: كيف بنت شركة الهند الشرقية الإمبراطورية البريطانية وقدمت المؤسسة العابرة للقارات، ترجمة كمال المصري، تقديم احمد بهاء الدين شعبان، ط1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2009.
13 – سباهي، عزيز، اصول الصابئة (المندائيين) ومعتقداتهم الدينية، ط1، دراسات المدى 18، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، 1996.
14 – سبستياني، رحلة سبستياني الاب جوزيبه دي سانتا ماريا الكرملي الى العراق سنة 1666م، ترجمة بطرس حداد، ط1، الدار العربية للموسوعات، لبنان، 2006.
15 – العزاوي، عباس، تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية من سنة 656هـ-1258م الى سنة 1335هـ-1917م، شركة التجارة والطباعة، بغداد، 1958.
16 – العقاد، عباس محمود، ابن سينا، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2013.
17 – لوريمير، ج.ج، دليل الخليج، ج4، القسم التاريخي، قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو امير دولة قطر، مطابع علي بن علي، الدوحة، (د.ت).
18 – لونكريك، ستيفن هيمسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، ط5، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، (د.ت).
19 – محمد، عاطف، علم اعلام الطب ابن سينا، ط1، اشهر العلماء في التاريخ، 8، دار اللطائف للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003.
20 – نيبور، كارستن، رحلة نيبور الكاملة الى العراق، ترجمة سعاد هادي العمري ومصطفى جواد ومحمود حسين الأمين، مراجعة سالم الالوسي، ط1، دار الوراق للنشر، بيروت، 2012، 39.
21 – هربرت، توماس، العراق وملاحظات شرقية في رحلة توماس هربرت سنة 1628، ترجمة وتعليق، انيس عبد الخالق محمود، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، 2013.

3. ثالثاً: المصادر الاجنبية

1- Slyfied, Brian, Samuel Evers: from India, through Arabia, to Horsham-and an Early Death, The Horsham Society Newsletter, November 2001.
2- Thevenot, Jean De, Suite du Voyage de Levant; dans laquelle… il est traité de la Perse… et aussi des antiquitez de Tchehelminar et […], seconde partie, publié par François Pétis de La Croix et le sieur de Luisandre, Paris, 1674, p309-310.
3- Thompson, Charles, The Travels of the late Charles Thompson, Efq; Containing his Observations on…, vol. III, London, 1767.

4. رابعاً: الموسوعات

1 – 1البركتي، المفتي السيد محمد عميم الاحسان المجددي، التعريفات الفقهية –معجم يشرح الالفاظ المصطلح عليها بين الفقهاء والاصوليين وغيرهم من علماء الدين رحمهم الله تعالى، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2003.
2 – الجاف، حسن كريم، موسوعة تاريخ ايران السياسي، مج 3، من بداية الدولة الصفوية الى نهاية الدولة القاجارية، ط1، الدار العربية للموسوعات، لبنان، 2008.

3 – الخوند، مسعود، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج 20، الشركة العالمية للموسوعات، لبنان، 2004.
4 – ـــــــــــ، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج4، دار رواد النهضة، لبنان، 1995.
5 – ـــــــــــ، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج6، (د.ن)، لبنان، 1996.
6 – شاكر، محمود، موسوعة تاريخ الخليج العربي، دار اسامة للنشر والتوزيع، الاردن، 2005.
7 – العزاوي، عباس، موسوعة العراق بين احتلالين حكومة المماليك 1162هـ–1740م/ 1247هـ–1831م، مج 6، الدار العربية للموسوعات، لبنان، (د.ت).
8 – ـــــــــــ، موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين، العهد العثماني الثاني (1048هـ – 1638م/ 1163هـ – 1750م، مج 5، الدار العربية للموسوعات، لبنان، (د.ت).
9 – مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، الادارة العامة للمعجمات واحياء التراث، ط4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004.
10 – مسعود، جبران، الرائد، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، 1992.
11 – المصري، حسين مجيب، معجم الدولة العثمانية، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2004.

خامساً: البحوث المنشورة في الدوريات العلمية:

1 – الاب فنشنسو، رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة وتعليق بطرس حداد، مجلة المورد، العدد الثالث، المجلد الخامس، العراق–بغداد، 1976.
2 – حداد، بطرس، رحلة الاب فنشنسو الى العراق، القسم الأول، مجلة مجمع اللغة السريانية، المجلد الأول، بغداد، 1975.
3 – ـــــــــــ، مقتطفات من رحلة تيفينو الى العراق (القرن السابع عشر)، مجلة بين النهرين، العدد 8، السنة الثانية، دار نجم المشرق الثقافي للنشر والتوزيع، بغداد، 1974.
4 – الربيعي، اسماعيل نوري، ميناء البصرة واهميته في الاستراتيجية البريطانية (1)، جريدة ايلاف الالكترونية، تاريخ النشر 1/6/2006، ElaphWriter/Web/com.elaph.www
5 – العوضي، محمود، سواحل ايران المطلة على الخليج عربية الهوية والتاريخ، جريدة ايلاف اليومية الالكترونية، تاريخ النشر 22/4/2011، news/Web/com.elaph.www

سادساً: المواقع الالكترونية

1 – بطريركية انطاكية وسائر المشرق للروم الارثوذكس، org.antiochpatriarchate.www
2 – تعريف ومعنى فرسخ في القواميس والمعاجم ar–ar/dict/ar/com.almaany.www
3 – Encyclopedia Britannica 1911, GEOGRAPHICAL NAMES, Jean De Thevenot, www. encyclopedia/com.theodora
4 – online.library–books.www
5 – fahrenheit/temperature/ar/com.convertworld.www
6 – articles/org.iranicaonline.www
7 – dictionary/coinpapers/com.treasurerealm.www